مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

انتفضَ دكتور محمّد إسماعيل من نومِه ليجدَ أمامَه دكتورة شيرين حامد ابنةَ أخيه، والفزعُ يملأ وجهَها، هتفت بقلقٍ بالغ:

- هل أنتَ بخيرٍ يا عمّاه؟!

أخذَ يلهث بقوّةٍ كغريقٍ تمّ إنقاذه للتّو، وعلى وجهِه تعبيرُ الدّهشة والذّهول، وهو يدور بعينيه في أرجاءِ الغرفة، وكأنّما لا يصدّق أنّه في غرفته، وفي سريره!

مسحَ عرقَه الغزير، وأحضرتْ شيرين أجهزةَ الفحص الطبّي، وأخذتْ تفحصُ نبضَه وضغطَ الدّم ودقّاتِ قلبه، ثمّ تنهّدت، وأغمضتْ عينيها لحظةً، وقالت:

حمدًا لله، خشيتُ أن تعاودَك الأزمةُ من جديد، هذا ليس بأسلوبٍ حياةٍ أبدًا! لا يمكنك العيشُ بهذه الطريقة، لن يتحمّل قلبُك.

اندفعَ دكتور بدرُ الدين غازي إلى داخل الغرفة، وهو يهتف:

هل أنت بخير!؟

عقدَ دكتور محمّد إسماعيل حاجبيه، ونظر في ساعةِ الحائط المعلّقة على الجدار المُقابل، وقال بعد أنْ تمالَك نفسه:

- ماذا حدث؟! ما الذي أتى بك الآن في هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل!؟

قالَ وهو يلتقطُ أنفاسَه:

- اتّصلتْ بي شيرين، ظنّت أنّك تختضر.

التفتَ لها دكتور إسماعيل، وكأنّما لا يعي شيئًا، فقالت:

- لقد أفزعتني يا عمّاه، حاولتُ إيقاظَك بكلّ السّبل، ولم تستجِبْ، كنتُ في حالةٍ مريعة، كدتُ أطلبُ لك سيارةَ الإسعاف.

قال بشرود:

- ماذا حدث!؟

قالت:

- كانت ضرباتُ قلبِك سريعةً للغاية، وجسمُك متعرّقًا، وتصرخ وأنتَ نائم!!

قال الدّكتور بدرُ الدين غازي، وهو يلقي بجسدِه المرهق على أقربِ مقعدٍ له:

- كان يصرخُ باسم شريف بالتّأكيد!

قالتْ نافية:

- لا، بل أيمن.

نظرَ لها دكتور إسماعيل مستنكِرًا، وقال:

- لا، بل شريف.

قالت شيرين بأسَف:

- صدّقني يا عمّاه، أنا لم أسمعْ منك سوى اسمِ أيمن.

هتفَ في وجهها، وصوتُه يمتلئ بالتّعب:

- لستُ مجنونًا لأنادي الأموات، شريف هو مَن كان هناك.

تبادلَ دكتور غازي معَها نظراتِ الدّهشة، ثمّ سأل دكتور إسماعيل: - هناكَ أين!؟

قالَ وهو يلهث، وعيناه تشردان بعيدًا:

- لا أدري، لم أتبيّن المكان، أظنّه كان يغرق.. كان.. كان يبدو كما لو كانَ يتألّم بشدّة، عيناه تستغيثانِ بي أنْ أخلّصه من اللّعنة التي حلّت

بجسده .

ابتلعَ ريقَه، وقال بصوتٍ مهزوز:

- ربَما.. ربَما كان يتوسَل لي أنْ أعيدَ خلاياه كما كانت.

قال دكتور غازي:

- هل سمعتَ صوتَه؟!

هزَ رأسه نافيًا:

- لا.

أكملَ دكتور غازي: هل تبيَنت وجهَه في الحلم!؟

قال دكتور إسماعيل:

- لم يكنْ حلمًا أبدًا، كنتُ أراه حقًا، أرى الدَمع في عينيه، الأسى والألمَ في ملامحه، نظراتُه كما لو كانتْ نداءَ استغاثة.

رأى نظرةَ إشفاقٍ في عيني شيرين، فصرخَ معنفًا:

- لا تنظري لي بهذه الطَريقة، لم أجنَ بعد.

قالت:

- ولكنَك لو بقيتَ على تلك الحالة؛ فستُجنَ بالتَأكيد، لقد كان حلمًا يا عمَاه، حلم نتيجةَ تركيز، تفكيرُك كلَه في البحث عن الشريف الذي اختفَى تمامًا ولم نعثرْ له على أثر، لدرجةِ أنْ صار هذا هو هدف حياتِك الوحيد عليك أنْ تصدَق أنَ شريف ليس أيمن.

هتفَ في وجهها غاضبًا:

- أعلمُ أنَه ليس أيمن، وهذا لا يعني أنْ أكفَ عن البحث عنه، وأتظاهر بأنَني لم أتعرَف إليه يومًا، الفتى في مأزقٍ كبير، يحتاج لمساعدة؛ بل لإنقاذ، وسأبذلَ كلَ ما بوسعي للبحث عنه، وسأجدُه إن شاء الله.

تبادلتْ شيرين نظراتِ قلّة الحيلة مع الدكتور غازي، ولم تستطعْ أن تقولَ كلمة.

* * *

لم يعدْ يعرف للنّوم طعمًا.

صار النّومُ بالنّسبة له عذابًا، كلّما غفا يراه أمامَه يستغيثُ به، كما لو كان يحمّله المسئولية بأنّه السّببُ في كلِّ ما حدث له، هو مَن جرّ عليه الكوارثَ منذ أن دخل تلك اللعبة الملعونة.

هو..

أبرعُ وأقوى قراصنة الإنترنت

أسطورةُ الموت والدمار

لكنّه استسلمَ للخداع كأيِّ طفلٍ ساذج

فقدِ اخترقت جهازَه منظّمةٌ عجيبة دونَ أن يعلم، واستدرجته لتحدّيات ومنافسات تستثير ذكاءه وقدراتِه، فأثبت تفوّقه ونجاحَه في اجتيازِ جميعِ المراحل، ليتسلّم بعدها جائزته..

جوّال عجيب متطوّر، تنبعثُ منه موجاتٌ كهرومغناطيسيّة، سيطرتْ على عقله، وجعلته أسيرًا لها، لكنّه فقدَ الجوّال، ووجده شريف، وأعاده إليه، وكان بداية تعارفهما.

شريف الذي ساعده على التخلّص من سيطرةِ تلك المنظّمة الرّهيبة.

شريف الذي آواه وحَماه عندما فقدَ سندَه الوحيد في الحياة؛ أبوه الذي راح ضحيّةَ انفجارٍ في بيته، دبّرته المنظّمة للانتقام منه، وهو يحاولُ اختراقَ مواقعهم، والوصول إليهم.

شريف الذي تورّط معه رغمًا عنه، وصار هدف المنظمة قتلَهما معًا، ولكنَّ محاولةَ القتل فشلتْ بعد أنْ تغيّرت خصائصُ خلاياهما بسبب التعرّض

لفترةٍ طويلة للإشعاع النَووي الضَعيف، والقوى الكهرومغناطيسيَة المنبعثين من الجوَال العجيب.

وبدلًا مِن أنْ يلقيا حتفَهما بعد أن تمَ إلقاؤهما في بئرِ مضعد عمارة تحتَ الإنشاء؛ انتقَلا في لا زمنٍ إلى أمريكا وكانت عودتُهما مِن هناك حيَين أشبه بمعجزة، ممَا جعلهما موضعَ بحث، ووضِعَا تحتَ الاختبار والفحص من ثلاثةِ علماء مصريَين؛ دكتور محمد إسماعيل، ودكتور بدر الدين غازي، ودكتورة شيرين حامد.. الذين اكتَشفوا قدراتِهما الفائقة التي تؤيّد نظرية الدكتور محمد إسماعيل، والتي يعمل عليها منذَ سنواتٍ طويلة..

والآنَ صار لديه حاسوبٌ فائق في عقله، يمكّنه من الاتّصال بأيّ حاسوبٍ آخر على وجه الأرض، ومِن خلاله يستطيع اختراقَ أغتى مواقعِ الإنترنت، وأكثرها حصانةً دون أن يشعرَ به أحد.

يكفيه أنْ يغلقَ عينيه، ويتخيَل؛ فتظهر أمامَه شاشةُ حاسوب يفعل بها الأعاجيب

والآن..

صار مع الجانبِ الآخر، استسلَمَ للمنظَمة التي حاولت قتلَه مرارًا، بعد أنْ أقنعه زعيمُها أنَ شريف قد خدعَه وكذبَ عليه.

يعيشُ في تلك الغرفةِ المريحة، والبيتِ الرّائع، أحلامُه أوامرُ واجبةُ النّفاذ.

بيت ما كان له أن يحصلَ عليه أبدًا في حياته، لوْلا أن قبِلَ التّعاونَ مع هؤلاء النّاس، برغمِ تخذيرات شريف المستمرّة له منهم عادَ عقلُه يبحثُ عن شريف برغمِ شعورِه بالمرارة من تلك الخُدعة التي فعلَها به آخرَ مرّة

لم يكنْ يشعرُ بالأمان سوى معَه، هو الوحيدُ الذي يمكنُ الوثوق به في هذا العالم المتوحّش تُرى. أينَ هو الآن؟! هل قُتِل أم أنّه مازالَ حيًّا؟ ولمَ كلّما غفَا، أو نام، يراهُ في أحلامه، ينظرُ إليه، وكأنّما يستغيث، لقد

وعدَه الزَّعيمُ أنَّه سيكونُ بخير، وسيتركُه يذهب لحال سبيله..

ثُرى.. هل فعَلَ حقًّا!!

لا يمكنُه أنْ يثقَ بذلك، كيف يطمئنَ أنهم لم يؤذوه أو يقتلوه! لا يستطيعُ أن يتأكَد، وإنْ حاول الاتَصالَ بأيّ إنسان؛ فسيكتشفون ذلك على الفور، فهوَ تحتَ رقابة مشدَدة لا يُمكنه استخدامُ هاتفٍ ولا أيٍّ مِن وسائل الاتصال.

ولكنْ.. يستطيعُ أنْ يبحث عن شريف على شبكة الإنترنت بمُنتهى الحريَة، ودونَ أن يكتشفَه أحد، نعمْ.. بالتَأكيد ذلك هو الحلَ الأمثل، أنْ يستخدمَ قدراتِه الفائقة، وخلايا عقلِه الخارقةَ في الاتَصال بالإنْترنت، والبحث عن شريف عبرَ حساباتِه على الإنترنت، سيجدُه، وإنْ لم يكنْ يستطيعُ أنْ يلتقيَه أو يراه، فعلى الأقلَ سيطمئنَ إنْ كان مازال حيًا.

***

أمَا آنَ لهذا العذاب أنْ ينتهي!!

يومًا بعد يوم.. يتوسَل إلى الله أنْ يكون آخرَ يوم، وأنْ يقبض روحَه، أو يقتلونَه بأسلحتِهم، لكنَه ينام ويستيقظَ في نفس الجحيم .

لو كان يعلمُ ما سيحدث له جرَاء تلك القفزةِ الهائلة التي اختار- بإرادته- أنْ يقفزَها من سطحِ العمارة هربًا من رصاصات أعضاء المنظَمة؛ لفضَل على الفورِ الهروبَ إلى الموت برصاصاتِهم على البقاءِ في هذا العذابِ المُهين!

مِن بعد أنْ أصابته تلك اللعنةُ وهو في كلَ يومٍ من سيئ إلى أسوأ، عاجزٌ عنْ إيقاف تلك الكوارثِ المتلاحقة، فمنذَ أنْ التَقى رامي وحملَ منه ذلك الجوَالَ الملْعون؛ وتبدَلت كلَ ذرَات جسدِه، وكأنَما صارَ شخصًا آخر، ومِن يومِها تحوَل إلى فأرِ تجاربٍ للدكتور محمد إسماعيل ومساعديه، وبرغْم أنَه يثقُ في دكتور إسماعيل ويحبَه كثيرًا، لكنَه كرِهَ أنْ يكون فأر تجاربٍ لا يتوقَف العلماءُ عن فحص جسدِه بكافَة الأجهزة

الطبية، ثمَ سقط في دوَامة المكان، يُمسي في مصر ويُصبح في أمريكا، أو أيّ مكانٍ آخر، وكأنَ الكوارثَ تنقصه حتى تحلَ على رأسه أكبرُ كارثةٍ لا يمكن أن يتخيَلها عقل، فلم يعدَ- فقط- مغتربًا عن مكانه، بل صارَ غريبًا عن زمانِه، سقط رغمًا عنه في دوَامة الزمن، صار بينه وبين عالمه 75 عامًا، وليتَه لم يغادز مكانَه في مصر، لقد سقط في ألمانيا في زمنِ الحرب العالميَة الثانية، في أحدِ المعامل السريَة للرايخ الثالث، مَن كان يمكن أنْ يصدَق أنَه سيرى بعينيه مجنونَ القرن العشرين صاحبَ نظريَة الجنس الآري!!

لقد ألتقى بهتلر نفسِه وجهًا لوجه، وكادَ يفقدُ حياته في أقصى لحظاتِ الرَعب، بعد أن أسقطته دوَامة الزَمكان أمام هتلر بشحمِه ولحمِه، وكادَ حرسُه الخاصَ يذبحوه لولا العلماءُ الذين كانوا معه في نفس المعمل، وشهدوا بأعينِهم الفجوةَ التي فتحتْها أجهزةُ استقطابِ الصَواعق، وسحبته رغمًا عنه إلى هذا الزمان العجيب والمكانِ الغريب، لكنَه- أبدًا- لن يعرف كيف يعود مِن حيث أتى، ولا مِن أين أتى!!

لقد ذاقَ شريف أنواعًا كثيرةً من الخوف منذُ أن تحوَلت خلايا جسده، لكنَ الخوف هذه المرَة ليس خوفًا؛ بل رعبًا، فزعًا، يأسًا...

لقد سقطَ في دائرة الضَياع، بابٌ فُتِح وأغلق خلفَه، ولا يعرفُ سبيلًا لفتحِه مجدَدًا، وهو هنا أسير، عاجز، لا يستطيعُ حتَى الخروج أو الوصولَ لمكانٍ مُرتفع ليستغلَ تَسارع الجاذبيَة، ويلقي بجسدِه مِن علَ علَه يستطيع فتحَ الفجوة مجدَدًا كما أخبرَه دكتور إسماعيل.

والآن، عليه أن يستسلِمَ يوميًا لهؤلاء العلماء السَاديَين كسيَدهم، يستلقي كلَ يوم أمامَهم عاريًا مقيَدًا لطاولةٍ طبيَة ينتهكون كلَ جزءٍ في جسده، ويجعلون منه حقلًا للدَراسات والفُحوصات التي يفهمُها، والتي لا يفهمها، بأجهزتِهم العتيقة الضَخمة المُزعبة، لقد اكتشفوا الانبعاثَ الإشعاعيَ في خلاياه، ربَما يظنَونه سوبرمان العصر، الرَجل الذي سيدعم تفوَقَ الجنس الآري!!

يصوّر له عقله أسوأ مخاوفه، فهو لا يعرف ما ينتوون فعله بجسده، هل سيأخذونَ خلاياه لتجاربِ أنسجة الأعضاء! أمْ يحوّلونه إلى مصلٍ أو عقارٍ يخقنونه في رجالهم! أو تطعيم لأطفالهم!؟

مَن يستطيعُ أن يفهمَ تلك العقليّة الساديّة المهووسة بعنصرية التفوّق؟!

ليتَه يفقدُ عقلَه، ويسقطُ في دائرة الجنونِ ليرتاح مِن شعوره الدّائم بانْتهاكِ آدميّته، واستباحةِ جسده، لقد ترك لهم جسدَه رغمًا عنه لعبةً يعبثونَ بها طوالَ النّهار حتّى يصاب بالإنْهاك والإعياء، فيلقون به في تلك الحجرة الضّيقة التي بلا نوافذَ، وتحتَ حراسة مشدّدة، يقضي اللّيل باكيًا متضرّعًا إلى الله أنْ يرحمَه من ذلك العذاب المستمرّ حتّى يسقط في النّوم من الإرهاقِ النّفسي والبدني...

عدّةُ أيّام وهو لا يرى الشّمس ولا القمر، لا يعرفُ ليلًا من نهار، لا يرى وجهَ أحدٍ سوى سجّانيه وجلّاديه الذين يطلقون عليهم زورًا علماء!

منذُ أنِ اكتشف تلك الموهبةَ الجديدة لديه، وهو لا يكفُ عن إرسال رسائلِ الاستغاثة للدّكتور محمد إسماعيل ولرامي عبرَ أحلامه، منذ أنْ أدركَ قدرتَه على أن يصلَ لأحلام الآخرين ويقتحمَها ويتواصلَ معهم ولكنْ دون كلام، لا يمكنه أن ينقلَ الرّسائل عبر الكلام في الحلم، لكنّه التقى دكتور إسماعيل ورامي عدّة مرّات، لكنّه عجز عن أنْ يشرح لهما ما حدث .

وماذا لو شرح لهما! بماذا سيفيدُه ذلك؟! وكيف سينقذاهُ ممّا هو فيه! وهُما يبعُدان عنه، ليس فقط مسافة الموقع الذي يفصلُ مصر عن ألمانيا؛ بل لأكثرَ من 70 عامًا في عُمق الزّمن، كيف يمكنُ لدكتور إسماعيل أن يساعدَه أو يخرجَه من تلك الدوّامة!!؟

كلّما فكّر في ذلك ازدادَ يأسًا

***

كان دكتور إسماعيل يدورُ في معمله كالنَحلة، يتصفَح كتبَه، ثمَ يجلسُ على الكمبيوتر، يكتبُ في ورقٍ بالقلم الرَصاص، لا يستقرَ في مكان، وعقلَه لا يهدأ أبدًا، لم ينمْ منذَ ساعات لا يدري عددَها، كان في حالةِ تركيزٍ عنيفة، فقال له دكتور غازي الذي صارَ يرافقه على الدَوام- رغمَ عدم اقتناعِه بنجاح مشروعِه- خشية أن يصيبه مكروهٌ، أو تعاوده الأزْمَة:

- لا أفهمُ ما بك! ولمَ كلَ هذا الانفعال!؟ ستُودي بنفسك للتهلكة.

ردَ غاضبًا:

- إنْ لم تكنْ قادرًا على تقديم المساعدة؛ فيُمكنك أن تقدَم بعض الصَمت، سيكون أفيدَ.

قال مندهشًا:

- صارت تصرَفاتِك غريبةً للغاية، لم تعد تتحمَل سماع أيَة كلمة من أيَ أحد!!

قذف بفأرةِ الكمبيوتر اللاسلكية بحركةٍ عصبيَة عنيفة؛ فتحطَمت على الأرض محدثةً دويًا فاجأ دكتور غازي، وجعله يعتدلُ في كرسيه، ويستمعُ لهتاف دكتور إسماعيل الغاضب:

- لمَ لا تتَهمني بالجنون أيضًا! هيَا فلتفعلها، أقنعتُك شيرين بأنَني فقدتُ عقلي، أليس كذلك!!

نظرَ له لحظاتٍ بصمت، وعلى وجهِه الذَهول مِن فقدانه المستمرَ للسَيطرة على أعصابه لأتفهِ الأسباب، ثمَ قال بصوتٍ منخفض: - كنتَ يومًا تبوحُ لي بما لا تبخ به لأحد! الآن صارتْ كلَ كلمة أقولُها موضعَ تشكيكٍ منك بأنَني أظنَك مجنونًا!

هتفَ ضائقًا:

- لأنَك صرتَ تُخبر شيرين بكلَ ما أهمسُ لك به.

قال الدكتور غازي:

- إنّها قَلقَة عليك، فلا أحد يحبّك مثلها.

قال:

- وهي تظنّني مجنونًا.

قال:

- لا تقسَ عليها، إنّها مشفقةٌ عليك، تظنّ أنّك تورّطت في ارتباطٍ عاطفيّ مع هذا الشّاب نتيجةً فقدانك لابنك، فصرتَ تعتبرَه في عقلِك اللّاواعي كأيمن تمامًا!!

ألقى بجسدِه على كرسي مكتبه، وهو ينظر له بدهشةٍ وعجبٍ للحظات، ثمّ قال:

- لا أنكرُ أنّني أحبّ هذا الشّاب حقيقة، لكنّني لم أجنَ لأخلطَ بينه وبين أيمن ابني الذي توفّاه الله منذ أعوام، أنا أؤمن بقضاء الله وقدَرِه، ومستسلمٌ لمشيئته، ولكنّ هذا الأمر يختلف تمامًا عمّا أشعر به تجاه شريف، شعوري نحو شريف هو شعورٌ بالمسئولية، فأنا الوحيدُ في هذا العالم الذي يعرف قصّتَه، وأفهمُ ما حدث له، لذلك حقّ عليّ مساعدته مهما كان الثمن.

قال الدّكتور غازي:

- إذًا، اشرح لي ما يحدث.

قال:

- عليك أوّلًا أن تقسمَ لي أنّك لن تبوحَ لأحد.

قال:

- أقسم.

قال:

- ولا لشيرين.

تردّد قليلًا، وظهر على وجهِه القلق، فقال دكتور إسماعيل:

- عذني ألّا تخبرها مهما ضغطَت عليك، وإلّا ستكون نهاية بيني وبينك.

قال دكتور غازي:

- هل الأمرُ مقلِقٌ لهذا الحدّ؟!

قال:

- شيرين لن تقتنعَ أبدًا بما سأخبرُك به، أسهل على عقلِها أن تصدّق أنّ الأمر خدعةٌ نفسيّة من عقلي الباطن، ولكنّها لن تصدق أبدًا أنّ شريف يحاول الاتّصال بي عن طريق الأحلام. الأمرُ ليس مزحة ولا تهيّؤات، إنه حقيقيّ تمامًا.

قال الدكتور غازي:

- لكنّه لا يُصدَّق!!

قال:

- ومَن كان يصدّق أن شريف ورامي لديهما القدرة على الانتقال عبرَ المكان!؟ أو تلك القدرات الفائقة التي ظهرتْ في عقليهما؟!

قال دكتور غازي:

- هلّا فسّرت لي ماذا تعني بأنّه يتّصل بك في أحلامك!!

قال:

- كلّما غفوت ليلًا أو نهارًا أراه أمامي، عيناه تتوسّلان أنْ أساعده، ولكنّه لا ينطق.

قال الدكتور غازي:

- هل أخبرَك عن مكانه؟

قال دكتور إسماعيل:

- لا، لكنّه في آخر مرّة زارني فيها في غفوتي تركَ لي علامةً.

قال دكتور غازي:

- أيّ علامة!

أمسكَ دكتور إسماعيل ورقةً، ورسم عليها بالقلم صليبًا معقوفًا، اتّسعت عينا دكتور غازي بذهول، وهو يهزّ رأسَه غير مصدّق:

- لا، لا.. هذا مستحيل، مستحيل تمامًا.

تذكر أنك حملت رواية الهروب الى الموت حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

***

مرّ وقتٌ طويل، ورامي يحاول- مرارًا- الوصولَ لمكان شريف عبر شبكة الإنترنت مِن خلال إخضاع عقلِه للتّركيز الشّديد، وهو نائمٌ على فراشه الوثير مُغمض العينين، لكنّه لم يجده، لم يظهز شريف في أيّ مِن حساباته على الإنترنت، ولم يردّ على رسائله الإلكترونية منذ أيّام، حتّى زملاؤه في الجامعة بدؤوا يتساءلون.. أين اختفى!!

بدأ رامي يشكّ فعلًا أنّ شريف قد قُتل، وأنّ الزعيم كان يكذبُ عليه عندما أخبرَه أنّه سيتركه لحالِ سبيله، شعرَ رامي بنقمةٍ شديدة على الزّعيم؛ بل على نفسه، كيف صدّق هؤلاء النّاس؟! كيف خدعَ نفسَه إلى هذه الدّرجة!؟ ولماذا يدفع شريف ثمنَ حماقاته!؟

شعرَ رامي بالرَغبة في البكاء على هذا الشاب الذي لم يرَ منه إلّا كلّ خير، فهو مَن جرّه إلى تلك اللّعبة الملعونة، وهو السّبب في أنْ يلقى حتفَه، لم يكنْ يشعرُ بالأمن إلّا معه، كان شريف- دائمًا- حريصًا على سلامته، يقدّم له النّصيحة المخلصة الأمينة، لا يتأخّر أبدًا عنْ تلبية ندائه إذا ما وقعَ في أيّ مأزق- صغيرًا كان أم كبيرًا-

حتّى الخُدعة التي قامَ بها مع الدّكتور إسماعيل ما كانت لتؤذيه أو لتخيفَه بنفس درجةِ الخوف التي يشعرُ بها الآن مع عُصبة القتلة الذين أوقعوه في شباكهم، كيف ينجو منهم؟ وبمَن يستعينُ بعد أن فقدَ شريف إلى الأبد؟!

يمرّ عليه الوقتُ بطيئًا مخيفًا، فهؤلاء لن يثنيهم شيء عنْ قتله بعد أنْ يأخذوا بُغيتهم منه، لم يعدْ هناك مَن يشكو له، ولا مَن يتحدّث إليه، تمرّ عليه الأيامُ مملّةً كئيبة، محطّمةً للأعصاب، وفي خضمّ ذلك البحر العاتي الذي غرقَ فيه لأذنيه؛ لم يجدْ عقلَه شيئًا يفكّر فيه سوى عينِ القطّ.

ابتسمَ عندما تذكّر وجهَها وعينيها، تلكَ الفتاةُ التي بدأ معها كلّ هذا، وكانَ يظنّها زعيمةَ المنظّمة، ممّا جعله يستفزّها لتلتقيه في أحدِ المناطق الشّعبية، تذكّر عندما التقى بها وجهًا لوجه، والريس حمادة الذي كان يحميها؛ تمنّى لو تعودُ تلك الأيام، ليتها كانت بالفعل هي رئيسةَ المنظمة، ربّما خفّف ذلك من شعوره المَقيت بالوحدة والفزع، كان يعلمُ أنّه لو حاول استخدام الكمبيوتر الذي في غرفته في الوصول إليها؛ لانكشفَ أمرُه على الفور، لذلك كان عليه أن يتّخذ أكثرَ الطّرق أمانًا للولوج إلى الكمبيوتر الخاصّ بها.

عاد سريعًا إلى لَعبته المفضّلة، وأغلق عينيه وهو نائمٌ على فراشه، واستذعى كلّ تركيزِه للاتّصال بشبكة الإنترنت.

عجبًا.. مرّة بعدَ مرّةٍ صار الأمرُ أسهل، وتحكّمه أفضل، وصار بارعًا في تلك اللّعبة، وأصبحت سيطرتُه على ذلك الكمبيوتر الفائق الذي يُخرجه

عقلَه في تحسّن مُستمر، واستطاع ببساطة الدّخولَ لكمبيوترِ عين القطّ، تعجّب عندما وجدَها تلعب تلك اللعبة القتالية التّواصلية الشهيرة، بل ونالت فيها مركزًا متقدّمًا بعد أن وصلت فيها لمستوياتٍ عالية من المهارة.

ثُرى، هل صارتِ الفتياتُ يفضّلن ألعابَ المعارك والمناورات والقتل!! فقد كانت تلعبُ مع فريقٍ مكوّنٍ من ثلاثِ بنات غيرها من دولٍ مُختلفة، وكلّ واحدةٍ تُطلق النار من سلاحها بلا حسابٍ كلّما رأتْ عدوًّا، وتحادثهنّ عبر ميكروفونِ اللّعبة وسماعتها.

كانت تبدو مرحةً للغايةِ معهنّ، ومستمتعةً لأقصى درجة.

تمنّى لو يشاركها اللّعبَ، أو يصبح فردًا من فريقها، ولو استخدم حيلةَ التنكّر في حسابِ فتاة، ممّا أيقظ في قلبِه الشّعورَ بالوحدة المَقيتة، التي فُرضَت عليه في ذلك المكان الكئيب؛ فلا أهلَ ولا أصدقاءَ، ولا أحدًا يحادثه أو يكسرَ وحدته.

اتّجه مباشرةً إلى الكاميرا والسّماعة، ونجحَ في فتحهما كما اعتاد بسهولة، وها هي أمامَه بوجْهِها الحَسَن، وابتسامتِها اللّذيذة، تعقدُ شعرَها خلفَ رأسِها كذيْل الحِصان، وتركّز عينيها على شاشة الكمبيوتر، مستغرقةً في اللّعبة.

سمع صوتَ أغنيةٍ شهيرةٍ تبدأ فجأة، فانتفضتْ لحظةً، وتغيّرت تعبيراتُ وجْهها، ثمّ حوّلت وجهَها عن الكمبيوتر لحظة، وأدرك رامي أنّها مكالمة هاتفية..

أغلقتِ الميكروفون والسّماعة في اللعبة، وأمسكت بالجوّال على أذنِها، وهي تعاود النّظرَ لشاشة الكمبيوتر، وبدأت تتحدّث مع إحدى صديقاتِها، كانت تتحدّث عن المدرسة والدّروس، ممّا أثار شوقَ رامي لما حُرِم منه، لقد أدركَ أنّهما في سنةٍ دراسيّة واحدة، وها هو الآنَ بعيدٌ عن آخرِ ما يربطه بحياته الطبيعية تنهّد بأسى، وعاد يتطلّع لوجْهها، كانت تهزّ رأسَها، وتتحدّث بشكل جعلَه يبتسمُ من طريقتها اللّطيفة،

لكنه فجأةً شعر بصدمةٍ جعلته ينتفِضُ، وكادَ يفتحُ عينيه واهتزّت الصّورة التي أمامه، وبدأت بالتشويش، لكنه تذكّر أنه سيفقد كلّ هذا، ويخرج من النظام الذي صنعَه عقلُه إنْ فتح عينيه، فتماسكَ وبدأ يحكمُ السّيطرة من جديد على عقلِه، فعادتِ الصّورة أمامه للوضوح، وبدأ يركّز على نقطة في الصّورة، ويكبّرها ليتأكّد ممّا رآه..

لقد كانت تمسكُ في يدِها نفسَ الهاتف الجوّال الذي أتاه كهديّة، والذي كان سببًا في سلسلةِ الكوارث المتتابعة التي أوصلته لهذا المكان، ذلك الجوّال الذي أصابه- هو وشريف- بالتّغيّرات الرهيبة في خلايا جسديهما، وأكسبتْهُما قدراتٍ فائقة لا يزالان لا يستطيعان السّيطرة عليها، ولا إدراكَ حدودها حتى الآن.

الجوّال الذي كان السّببَ في قتل شريف!

انتفض رامي من فراشه، وفقَدَ قدرتَه على السيطرة على عقله، عندما انتزعَ نفسَه فجأةً من عالم الإلكترونيات والاتّصالات، وغادر عالمَ الإنترنت بسرعةٍ كفيلة أنْ تصيب أيّ كمبيوتر بعطبٍ مؤقّت، فتحَ عينيْه فأصابه صداعٌ هائل، وأخذ يلهثُ بشدّة، انتفضَ مرتعبًا، عندما فتح بابَ الغرفة فجأة، ووجدَ الحارس أمامَه يسأله:

- أهناك شيء؟ هل أنتَ بخير؟!

كان قلبُه يتردّد في صدره برعب، وهو ينظر للحارس لا يدري ما يقول، ثمّ بدأ يستوعبُ وضعَه، وأدرك أنّه تحت رقابةٍ مشدّدة حتى وهو نائم، فأخذ نفسًا عميقًا، وقال بصوتٍ متحشرج:

- حلم، حلمٌ مُريع؛ بل كابوس!

تركَه الحارسُ ورحل، وسقط رامي في دوّامة الحيرة، أدرك- أخيرًا- أنّ كلّ ما كان شريف يحذّره منه قد حدث؛ بل وأسوأ، كلّ ما كان يتهرّب منه صار حقيقةً بالفعل، فتلك المنظّمة لن تكتفي به، بل تسعى لتجنيد غيرِه، ويعلم الله كمْ عددُ الشّباب والبنات الذين دُمّرت خلاياهم

بذلك الجوّال المرعب؟!!

الآن، فهمَ أنّ عين القطّ صارت إحدى ضحاياهم، والله وحدَه يعلم ما أصابَها من هذا الجوّال، ومدى التّغيرات التي حدثت لها، الآن فقط أدركَ أنّها صارت ثالثتهما.

***

قضى شريفُ ليلةً مُرعبة، يتقلّب في فراشه الصغير يمينًا ويسارًا، يغفو لحظاتٍ ويفيقُ على كوابيس مُرعبة، فقد فهمَ من الكلمات القليلة التي يستطيع أن يفسّرها مِمّن حولَه مِن الباحثين والعلماء أنّه سيتمّ نقلُه غدًا عبر القطار إلى بولندا، تمنّى لو كان يجهل الألمانية فيُساق إلى مصيره دونَ أن يتعذّب بالمعرفة المُسبقة لما سيحدث، لكنّ لغتَه الثّانية في سنوات دراسته الثّانوية كانت الألمانية، لقد اختارَ اللغة الألمانيّة برغبته الخالصة؛ لحبّه الشّديد لمجال الهندسة، وكانتْ أمنيةَ حياته أن يحصل على منحةٍ دراسيّة، ويكمل دراسته في ألمانيا.

ما كان ليصدّق أنّه سيزور ألمانيا بالفعل، ولكن قبل 70 عامًا، ليته كان أميًا ولم يقرأ عن تاريخِ الحرب العالمية الثانية، ولم يعرف أنّ بولندا هي معقلُ لأكبرِ معسكرٍ من معسكرات الاعتقال للنازية في أوروبا، ذلك الذي ارتبط اسمُه بالمحرقة، سواء كان بالصّدق أو بالكذب، أو بمبالغات اليهود، لكنّه سيظلّ أكبرَ معتقلٍ للتعذيب النّازي في أوروبا في اليوم التّالي، استراحَ شريف من وجوه العلماء والباحثين الذين كانوا يعبثون بجسدِه طوالَ الأيام الماضية، وتلك الأجهزة الغريبة التي يستخدمونَها في فحصِه..

اليوم، رأى السماء الزرقاء..

اليوم، خرج من ذلك القبو الخانق، الذي لم يكن يعرف فيه الليل من النّهار، ولا يدرك الوقت..

أخيرًا، صعدَ إلى سطح الأرض، ورأى أسفلَ الطريق، عندما اقتادَه

الحرسُ إلى خارج المبنى الذي كانوا يحتجزونه فيه، وساقوه إلى سيّارةٍ عسكرية لينقلوه إلى محطّة القطار .

كانت عينا شريف على نافذةِ السّيارة، ينظر للسّماء وللطريق بشوقٍ عارمٍ ولهفة، لا يدري متى سيرى السّماء مرّة أخرى!

الآن، يقدّر قيمةَ الحرية بعد أن حُرِم منها لأيام.

سارتِ السّيارة لفترةٍ طويلة لا يعلم قدرَها، حتّى وصلت إلى محطة القطار، ثمّ اقتاده الحرسُ إلى غرفةٍ في المحطّة، لم يكنْ فيها وحيدًا؛ كنا هناك سجينٌ آخر تحت الحراسة قد سبقَه إلى نفس الغرفة، شابّ يقاربُه في العمر والطّول، ذو وجه مستطيل، وسيمُ الملامح، وشعر بنيّ ناعم بمفرقٍ جانبي، وعيناه تطلّ منهما نظرةُ أسى وخوف لا يحاولُ إخفاءها..

بمجرّد أنْ دخل شريف الغرفةَ انتفضَ الشابّ فزعًا، وظهر الخوف في وجْهه، لم يتعجّب شريف؛ فهنا على هذه الأرض كلّ شيء مُخيف ومُفزع، ولا يُمكنك توقّع ماذا سيحدث لك في الدقيقة القادمة.

لم يجذ شريف في نفسِه رغبةً في الكلام، ولا تبادل أحاديث مع أيّ أحد، ولو كان أسيرًا مثلَه، لذلك اتّخذ ركنًا من أركان الغرفة، وجلس فيه بصمت، وهو ينظرُ للحرّاس الأربعة المدجّجين بالسلاح، وهُم منتشرون في الغرفةِ يراقبونهما بدقّة. نظرَ شريف- بفضول- نحوَ ذلك الأسير الذي احتلّ الرّكن المقابل له، وأزعجَه كثيرًا أنّ الأفكار تنسابُ بسهولة من رأسِ ذلك الأسير إلى داخل رأسِه، فآخرُ ما كان ينقصُه هو أنْ يُضاف إلى رعبِه رعبُ الآخرين، ومشاعرُهم وآلامُهم!!

ولكنْ، لم يكنْ لديه القدرة على التّحكم في تلك القدرة الفائقة التي احتلّت جسدَه دون إرادةٍ منه.

كان ذلك الشابّ الذي أمامه يفكّر، يفكّر كثيرًا جدًّا، ولا يكفّ عن الطّنطنة المستمرّة وهو يحادثُ نفسه، لكنّ شريف لم يفهم شيئًا.

لا يستطيعُ أن يفسّر ما يفكّر به الشّاب، وأدرك- بعد تفكيرٍ- أنّ الشابّ يفكّر بلغته الأمّ (لغة التفكير)، وهي أوّل لغةٍ يتعلّمها الإنسان في حياته، لم تكنِ الإنجليزية، وكذلك ليست الألمانية التي يعرفها، لم يكن لديه أيّةُ رغبةٍ في أن يعرف فيمَ يفكّر، لكنّ الشابّ لا يكفّ عن التّفكير السّريع المستمرّ، والذي كان يصلّ لعقل شريف كأزيز يصيبُه بالصّداع، ممّا أجبره أن يبعدَ عينيه عنه وينظرَ للجدار؛ ليريحَ عقلَه المتعَب لبعض الوقت.. لكنّ فضولَه لم يكنْ يترك له مجالًا للرّاحة، فبين لحظةٍ وأخرى كان يختلسُ النّظر نحو ذلك الشابّ ليجده مازال يُطنطِنُ بعقله، كما لو كان يتلو صلواتِه الأخيرة، شيءٌ ما في ذلك الشابّ لا يُشعِره بالراحة، وبرغم أنّه أسيرٌ مثله، ولم يصدرْ منه ما يُريب؛ لكنّه لم يطمئنّ إليه أبدًا.

* * *

خرجَ دكتور إسماعيل من مبنى الوزارة غضبانًا، يتبعه دكتور بدر الدّين غازي مسرعًا يناديه، ويطلب منه أن يتمهّل، لكنّه لمْ يستجِب، واتّجه للسيّارة مباشرة، وعندما لحقَ به دكتور غازي، قال:

- دعْني أنا أقود.

لم يعارضْه، بل ألقى إليه بالمفاتيح، وجلس في المقعد المجاور له وهو يزفرُ بضيق.

قال دكتور غازي:

- كان الرّفضُ متوقّعًا، فبالنسبة لهم لا ضرورةَ لصرْف كلّ تلك المصاريف، ولا لمدّ المركز بأيّة أجهزة جديدة، كما أنّك لم تقدّم مبرّرًا كافيًا يُقنعهم لعمل أبحاث جديدة.

هتف دكتور إسماعيل:

- إذًا، فأنا مِن وجهة نظرهم بائعُ بطاطا!! صدقَ مَن قال (لا قيمة لعالِمٍ في بلد العوالم).

قال:

- يا دكتور، الأمرُ ليس بهذه السَهولة، لن يُخرِج أحدٌ مليمًا من الوزارة دونَ رقابة، ودون أنْ يعرفوا علام تجري أبحاثك.

هتفَ بضيق:

- المركزُ يحتاج لجهةِ تمويل، يحتاج لتجديدِ وصيانةِ لبعض الأجهزة، ويحتاج لشراءِ بعض الأجهزة الحديثة من الخارج، لكن لا يبدو أنّ هناك أحدًا مهتمًا بأيَ شيء.

زفرَ بضيق، وأكملَ هازئًا: (العلم صار يكيَل بالباذنجان) لم تعد تلك المقولة تقتصرُ على مسرحيّة هزليّة فقط؛ بل صارت واقعًا.

ثمَ هتفَ بانفعال: سأبيعُ بيتي، سيارتي، ملابسي، المهمَ أن يتمَ الأمر بأيّة صورة.. (ثمَ وجّه كلامه لدكتور غازي): أنتَ أكثرُ مَن يعلم كم تتكلّف مثلُ تلك الأجهزة!!. ما كنتُ لألجأ للوزارة إلَا لأنني أحتاج فقط لأنْ يسير الأمرُ بشكلٍ قانوني، وأنْ يتفهَموا الأمر حتَى لا أجد نفسي أمام المشاكل والعقباتِ والرّوتين وجهًا لوجه، ثمَ يأتي مسئول بيروقراطي لا يفهم شيئًا في العلم ولا الأبحاث، وتأخذه الجلالةُ بالكذب، ويأمر بإيقاف المَشروع دون إبداءِ أسباب، والسَيطرة على المبنى، وبيع ما به من أجهزةٍ لن نستطيعَ أن نعوّضها أبدًا، هكذا الحال مع كلّ مشروع لا تهتمَ به أيّة جهة.

قال الدكتور غازي:

- ليس بأيدينا شيء لنفعله، فلتنسَ الأمر.

هتفَ غاضبًا:

- لنْ أنسى، سأجدُ حلًا، لا بدَ أنْ أنجز المشروع الذي في رأسي، ولو كان الثمنُ حياتي.

كانَ يتتبَعُها، ويدخل كلّ يومٍ على شبكة الإنترنت ليراقبها، ويحاول

الاتّصال بها، لكنّه يَجبُن عن إظهار نفسِه لها، وهي لاهية لا تدري شيئًا عمّا يُحاك بها.

كيف يمكنُه الاتّصال بها دون أن يلفتَ انتباه المنظّمة التي تحاصرُها وتحاصره!! كيف يتّصل بها وتستمعُ له بسهولة، وتصبرُ حتّى تتبيّن لها الحقيقةُ دونَ أن تفعلَ به مقلبًا من مقالبها التي يعرفها جيدًا!

كم يفتقد شريف..

يدُ العون التي تسانده دائمًا، وتبثّه الشجاعة..

كم يفتقد دعمَه وأفكاره..

وبعدَ فترة، توصّل عقلُه لفكرةٍ كانت تائهةً عن عقله العبقري برغم بساطتِها الشّديدة؛ فقرّر البدء بتنفيذها على الفور.

اخترقَ حساباتِ التّواصل الاجتماعي الخاصّة بها، واطّلع على رسائلها ومحادثاتِها ليعرف صديقاتِها، ثمّ اختار حسابَ زميلة لها من المدرسة تبدو علاقتها بها ليست قويّة، وليست بينهما كثيرٌ من المحادثات، ورسائلهما فقط عن أمور الدراسة والمدرسة، وكلّما احتاجتِ الفتاةُ شيئًا في المنهج المدرسي؛ فما كانَ ليتورّط في تمثيل دور إحدى صديقاتها المقرّبات، وإلّا انكشفَ على الفور مع أوّل محادثةٍ معها، كما أنّ تلك الفتاة واضحٌ أنّ حسابها مهجورٌ من شهور، ولا تفتحه، ربّما يشدّد عليها أهلُها، ويمنعونها من الإنترنت أثناءَ الدّراسة؛ لهذا كانتِ الخيارَ الأمثل للّعبته التّالية..

اقتحمَ حسابَ الفتاة، وأرسل لعين القطّ- أو إيمان، (هكذا عرف اسمَها الحقيقي من الرّسائل والمحادثات)- رسالةً محاولًا، قذرَ استطاعتِه، تقمّصَ أسلوب صديقتِها في الكتابة، يطلبُ منها المساعدة، وبعدما ردّت اختلقَ قصّة مُحكمة، وأخبرها- وهو متقمّصٌ دورَ صديقتها- أنّها قد أضاعت نقودَ الدرس، وتحتاج أن تستدينَ منها مبلغًا سترده على دُفعاتٍ من مصروفها الخاصّ، ولا تريدُ لأهلها أن يعرفوا حتّى لا يكدّرها

أبوها.

وبالفعل كما توقّع، استجابت عينُ القطّ، وردّت على الرّسالة بالقبول الحَسَن، ووافقت على مساعدتها، اتّفقا على مكانٍ تلتقيان فيه، واقترحَ رامي أن يكون مكانُ اللّقاء في أحد «المولات» الشّهيرة في حيّ راقٍ هادئ، ووافقت إيمان (عين القطّ).

والآن.. انْتهى من العقبةِ الأولى، وتبقّى أهمّ عقبةٍ في الأمر؛ كيف يتخلّص من رقابة الزّعيم؟! وبأيّة حجّةٍ سيخرُج من المكان وحده دونَ حراسة!؟

الأمرُ ليس سهلا..

ليسَ سهلًا أبدًا.

* * *

وصل القطارُ أخيرًا..

خرجَ شريف والأسيرُ الآخر من الغرفة يُساقان أمام الحرس الأربعةِ المسلّحين إلى رصيفِ القطار، الذي يبدو كما لو كان قطارَ بضائع لا ركّاب..

وجدَ الرّصيفَ مزدحمًا بالأسرى والجنود، ثمّ ركب كلّ مَن على الرّصيف، يُساقون بالمدافعِ الرّشاشة إلى داخل العربات، أمّا شريف والشابّ الذي كان معه في الغرفة فقد سيقًا لعربةٍ مخصّصة لهما فقط وحدَهما، ومعهما الحرسُ الأربعة بمدافعهم الرشاشة.

كانت العربةُ الخشبيّة مفروشةً بالقشّ، ليس بها مقاعد، ولها رائحة سيّئة للغاية، كما لو كانت مخصّصة لنقل الحيوانات.

انطلقَ القطار..

ومع كلّ كيلومترٍ يقطعُه كان الأملُ في النّجاة بداخل شريف يموت، ويحلّ محلّه اليأس؛ فالقطارُ عبرَ الحدود بعد ساعاتٍ إلى بولندا، هناك

حيث أكبرُ وأشهرُ معسكرِ اعتقالٍ من معسكرات النازية.

عزف شريفُ عن الطعام، وتحمّل العطشَ لساعات، حتى لا يضطرّ إلى قضاء حاجته في ذلك المكان كما يفعل الحرس، وقد حوّلوا رائحة العربةِ إلى مراحيضَ عموميّة.

توغّل القطار داخل الأراضي البولندية، والتي أحكمت ألمانيا سيطرتها عليها تمامًا، ومن وقتٍ لآخر ينظرُ شريف نحو رفيقه في الأسر ليجد رأسه مازال يغلي ويطنطنُ بكلماتٍ لا يفهمها، كما لو كان يتلو صلواتٍ، فيغمضُ عينيه ويشيحُ بوجهِه بعيدًا، ويغرق في همومِه، وهو يتضرّع إلى الله أن ينقذَه وينجّيه، وقلبُه ينزف ألمًا وقهرًا على ما وصل إليه حاله.

فقط.. لو تركوا له بعضَ الحريّة؛ لما توقّف عن الصّراخ غلًا وغيظًا، ولظلّ يضرب في الجدران بقبضتيه حتى يفرغَ بعضًا من مشاعرِه المشتعلة بالغضب والقهر.

توقّف القطارُ قبل أن يصل لمحطّته، وأخذ شريف يتطلّع بفضول للخارج مِن بين فرجاتِ الألواح الخشبيّة للعربة علّه يعرف لمَ توقّف القطار!

وعندما طالت فترةُ التوقّف؛ تململَ الحرسُ وأخذوا يحادثون بعضُهم البعض، وفهمَ شريف أنّهم يتساءلون عنْ ما أوقف القطار، ثمّ فتح أحدُهم الباب، وأخذ ينظر يمينًا ويسارًا، ثمّ أشار لأحد الحرس يقف قريبًا من العربة التي تقلّهم، ويرتدي زيّ جنديّ ألماني، اقترب من العربة وبدأ يتبادل الحديثَ الحرس، ويردّ على أسئلتهم، وفهمَ شريف أنّهم يسألونه عن سبب توقّف القطار، لكنّ الإجابة جاءت على غير ما توقّعه الحرس، فقد كانت رصاصاتٍ أردتْ أحدَهم قتيلًا على الفور، وأصابتْ آخر..

ما حدثَ بعد ذلك كان أسرعَ ممّا يستوعبه أي عقل، فقد انتفض الحرسُ الثلاثة الباقون بسرعة، وردّوا على الحارس المزيّف بالرّصاص فسقطَ

قتيلا على الفور، ثمّ ظهرت درّاجتان ناريّتان أتت كلّ واحدة من ناحية تحملان حارسين يرتديان ملابس الجنود الألمان، توقّفا بالقرب من العربة التي تحمل الأسيرين، وأخذا يُطلقان الرّصاص فقتلا حارسين آخرين، لكنّ عربات القطار الأخرى فتحت أبوابها، وبدأ يخرجُ منها الحرس لصدّ الهجوم الخارجي الذي بدأ يتوالى، واتّضح جليًا أنه محاولة لتهريب أسرى، تبقّى حارسٌ واحد فقط في العربة التي بها شريف ورفيقه الأسير، والحرسُ مِن باقي العربات مشغولون بصدّ الهجوم، وبدتْ عليه الحيرة، هل يغادر العربةَ ويشارك في صدّ الهجوم، أمْ يبقى لحراسة الأسيرين؟!

لم يكنِ الأمرُ يحتاج إلى لغةٍ للتّفاهم بين شريف والشابّ الذي معه؛ فيكفي نظرةٌ من كلّ منهما للآخر ليتفاهَما على الهجوم على الحارسِ الأخير في توقيتٍ واحد، والذي كان عقبتَهما الوحيدةَ في طريق الحريّة؛ فهجَما عليه وأفقداه الوعي، ثمّ قفز شريف من القطار، وقفز خلفَه الشابّ، وانطلقا يجريان بعيدًا عن القطار، لكن الشابّ أصابته رصاصةٌ في ظهره من أحدِ حرس القطار الآخرين فسقطَ أرضًا، وعندما التفتَ شريف خلفه ورأى الشابّ مصابًا عاد أدراجَه مسرعًا، ومدّ يدَه إليه، فنظر له الشابّ بذهول، وكأنما لم يكنْ يتوقّع منه ذلك، وعندما شعرَ شريف بالخطر، ورأى الحرس يتوجّهون ناحيتَهما؛ صرخَ فيه بالإنجليزيّة: هيا..

استجاب له الشابّ وأمسك بيدِه، واعتمد على كتفِ شريف، واستند عليه لينطلقا معًا نحو الدّراجة النارية التي ماتَ صاحبُها قبلَ قليل في تبادلِ إطلاق النار.

كان شريف يعلمُ جيدًا أنّ بإمكانه قيادتها، فعدّل وضْع الدراجة وركبَها، وركبَ الشابّ خلفه، ثمّ فوجئ شريف أنّها تبدو غريبة عمّا اعتادَه في عصره، فسأل الشابّ بالإنجليزية بعجلةٍ: أينَ البنزين؟!

صرخ الشابّ بذُعر: ماذا!!

أعادَ شريف السؤال، فأشار له الشابّ إلى مكان البنزين، وهو يقول برغب:

- ألا تعرف قيادتها!؟

قال شريف:

- بلى، أعلم جيدًا، فقد عملتُ طيّارًا لفترة.

لم يدرك شريف ما قاله إلّا بعد أنْ صرخ الشابّ:

- ماذا!! هل أنت طيّار؟!!

هتفَ وهو يشغل الدّراجة النّارية وينطلق بها:

- لا.

لم يكنْ هناك المزيدُ من الوقت لتبادل أيّة أحاديث وهُما مطاردان، والحرسُ يطلقون النارَ بجنون!

أثبتَ شريف أنّه يجيد قيادتَها بالفعل لا بالكلام، ونجحَ في الابتعاد عن القطار وعنِ الحرس، وتوغّلت الدّراجةُ داخل الأراضي الخضراء.

في البداية، وجد شريف صعوبةً في السّيطرة على الدراجة عبر الأراضي غير المستوية؛ حيث ترتفع حينًا وتنخفضُ حينًا، وتعلو في مناطق، وتهبط في أخرى، لكنّه اعتاد ذلك بعدَ وقت قصير، ثمّ دخلَ بها إلى غابةٍ شجريّة، فشعرَ ببعض الأمان عندما ابتعد عن مُطارديه، وسادَ الهدوءُ إلّا مِن صوت موتور الدّراجة المُزعج، وكان عليه التوقّف ليرى كيف حال جرحِ رفيقه الذي كان يبدو عليه الإعياء، لكنّ رفيقه رفض أنْ ينزل من على الدّراجة، وما كان شريف يحتاج لقراءةِ أفكاره ليفهم أنّ الشابّ لا يثقُ به، وأنه يخشى أن يتركَه في الغابة وينطلقَ وحدَه بالدّراجة ليتخفّف من حمله الثقيل، ويهرب وحدَه.

لكنّ شريف قال له مُطمئنًا:

- لا تخَف، لو كنت أريدُ أنْ أتركك لتركتُك عند القطار، وفررتُ وحدي على الدَراجة!

اطمأنَ الشابَ لكلماته، وتحرَك مِن على الدراجة، وساعده شريف على الاستلقاء مستندًا إلى جذع شجرة، وقد كان جرح كتفِه ينزف بغزارةٍ من الخلف، فخلع شريف قميصَه ومزَقه بيديه إلى شرائط وضمَد بها جرحَ الشابَ كيفما اتَفق؛ محاولًا- قدر جهده- إيقاف النَزيف، وهو يقول:

- لنْ يتحمَل جسدك النَزيف طويلًا، علينا الحصول على مساعدة وعلاج.

نظرَ له الشابَ بامتنان، وقال:

- أعرفُ مَن يساعدنا في هذه الأرض؛ فقد ولدت هنا.

نظرَ له شريف، وأسرَ في نفسه مشاعرَ شتَى، وكتم في قلبه شكوكًا مؤلمة راودته طويلا منذَ أنْ رأى الشابَ، وقد بدأت تتحوَل الآن إلى يقينٍ لا ريب فيه، لا ينقصه سوى أنْ ينطق الشابَ، ويقول: إيزاك هيرليتز..

صمتَ شريف طويلًا، وشلَ عقلَه عن التفكير، حتى ظهر الوجَل والشَكَ في عيني رفيقه، وانتابه القلقُ من صمته غير المفهوم، وأدركَ شريف أنَ عليه أنْ يتكلَم.. أنْ يقول أيَ شيء، وعندما فتح فمَه قال ببطء، وبوعي شبه مخدَر:

- ياكوف بنيامين حنانيا

***

زفرَ دكتور بدر الدَين غازى، وألقى برأسِه على ظهر المقعد الجلديَ الذي ارتدَ للخلف بزاوية، وأخذ يفرُك عينيه من الإرهاق، ثمَ قال لرفيقه الذي لا يزال يحدقُ بشاشة الكمبيوتر بعد ساعات طويلةٍ لم ينلْ فيها دقيقةً

واحدة للرَاحة:

- لا فائدة، لنْ نجد مَن يتعاون في تمويل البحث.

التفتَ له دكتور إسماعيل، وقال بضيق:

- ألَا يمكن لفمِكَ هذا أنْ يتفوَه ببعض التَفاؤل! فلتقلْ خيرًا أو لتصمت.

قال:

- حسنًا، لقد قضيت السَاعاتِ الطوال بحثًا عن جامعة أو مركز بحثيَ، أو عالِم ليساعدك في تمويل بحثِك العجيب، ويمدَ المركزَ بما تحتاجُه من أجهزةٍ مكلَفة، ولكنْ يبدو أنَ سمعتنا كعلماء مصريين لا تشجَع أحدًا، كما أنَ وضعك لشرطِ أنْ يتمَ البحث داخل مصر، وداخل المركز الدَولي لدراسات مصادر الطَاقة تحديدًا، والذي تديرُه بنفسك؛ أغلقَ عليك أبوابًا كثيرة، ربَما لو أرسلت لهم لطلبِ عملٍ في أيَة جامعة أو مركزٍ بحثيَ لرحَبوا، وتمسَكوا بك بأيديهم وأرجُلهم، ولدفعوا مقابلَ خبراتك النَادرة ما لا يُمكنك أنْ تحلمَ به..

ولكنْ، سيبقى الحالُ على ما هو عليه طالما رأسُك يابسًا لتلك الدَرجة.

تشنَجت يدُ دكتور إسماعيل، وكادَ يعتصرُ فأرة الكمبيوتر المحمول ويحطَمها بين أصابعه، بعد أنْ أتاه الردَ بالرَفض للمرَة الكمَ؟ لم يعدَ.... لكنَه تمالك نفسَه بسرعة، وأبعدَها عن متناول يدِه، وطوى شاشةَ الكمبيوتر المحمول بعنف، وابتعد عن المكتب، ووقف أمام النَافذة، وأزاح السَتائر، فتحَها وأخذَ شهيقًا طويلًا، ثمَ زفر الهواء من رئتيه عدَة مرَات علَه يعود لهدوئه، ويستطيع السيطرة على أعصابِه المشتعلة.

اقتربَ منه دكتور غازي، وقال مُشفقًا:

- لمْ أركَ من قبلُ بمثل هذه الحالة من التوتَر والعصبية، شيرين محقَة، قد تفاجئك الأزمةُ في أيَ وقت.

قال بأسى:

- أنا في سباقٍ مع الزّمن، مَن يعلم ما الذي حدثَ للفتى، وماذا يواجهُ الآن في دوّامة المجهول التي ابتلعته؟!!

قال دكتور غازي:

- ما الذي يجعلك متأكّدًا لهذه الدّرجة أنّ بإمكانك إعادته؟!!

قال والدّمع يبدو جليًا في عينيه:

- سواء كنتُ متأكّدًا أم لا؛ فيجب أنْ أحاول، لكنّ الكارثة أنّني لم أنَلْ أيّة فرصةٍ للمحاولة، لا أحد يريد أنْ يجازف.

قال:

- الأمرُ مُخيف، تجربةٌ فيلادلفيا تركتْ أثرًا سيئًا مرعبًا؛ يجعل أيّ إنسانٍ يفكّر ألفَ مرّة قبل الخوض في تلك النظرية.

قال:

- لستُ مجنونًا لأكرّر تلك التجربة، على العكس.. إنّ نظريتي تعتمدُ على..

توقّف عن الكلام عندما سمعَ صوتَ وصول رسالةٍ على هاتفه الجوّال، فعاد للمكتب وتناولَ الهاتف بسرعة، وفتح الرسالة....

عقدَ حاجبيه باهتمام، وقرأ الرّسالة بتركيزٍ شديد، ثمّ أشرق وجهُه بابتسامةِ فرحٍ، وهتف بحماس:

- اللهُ أكبر...

سألَه الدّكتور غازي وقد نالَ منه الفضول:

- ماذا حدث!؟

قال بسعادة:

- الحمدُ والشّكر لك يا إلهي. إنّها رسالة من مركزِ أبحاثٍ تابعٍ لجامعة

في ألمانيا، وافقوا على موضوع البحث، وسيتمّ على نفقتهم.

هتف دكتور غازي:

- رائع، أخيرًا جهةٌ ما اهتمّت للأمر.

قال:

- لنْ تصدّق، بل سيمدّون المركز بكلّ الأجهزة التي يحتاجها، وسيقومونَ بصيانة الموجود بالكامل!!

قال دكتور غازي بشكّ:

- أهذا يُعقَل!!؟

قال:

- تلك الجامعةَ تحديدًا كانت قد وقّعت على بروتوكول تعاون مشتركٍ بينها وبين الوزارة، وساهمت بمنحةٍ بمبلغٍ كبير في بناء وتجهيز هذا المبنى، لكنّ المشروع توقّف، وانسحبوا من فترة

ولكنِ الآن، وعن طريق منحةٍ جديدة سخيّة للوزارة؛ سيذعونني أجري أبحاثي وتجاربي فيه بحريّة.. المهمّ، هل أنتَ معي؟ أحتاجُك بشدّة، أحتاج لتخصّصك في الإلكترونيّات، ولا أثقُ بأحدٍ غيرك، لا أأتمِنُه على سريّة هدفِ المشروع الحقيقي.

قال دكتور غازي بشكّ:

- بالتّأكيد أنا معك، ولكنّي لست مرتاحًا للأمر، هناك شيء غير منطقيّ في تلك القصة.

قال بعَجَلة:

- لا تدعْ شكوكَك تُفسد علينا ذلك الأمل، إنّ كلّ ما أبتغيه هو فرصة أحاولُ فيها إعادة شريف.. وفي سبيل ذلك قد أضحّي بأيّ شيء، ولو

أتعاون مع الشَيطان نفسِه.

أكمل بإصرارٍ بالغ: يجبْ أن يعود.

***

نجحَ رامي بعد معاناةٍ في إقناعِ الزَعيم أنه يجب أن يذهب لزيارة عمّه حتّى يطمئنّ عليه ويطمئنه، فقد يبلّغ الشرطة عن اختفائه أو يثيرُ المُشكلات، في البداية لم يقتنعِ الزَعيم بسهولة، إلا بعدَ أنْ قال له رامي إنّهم يعرفون مكانَ عمّه، وأين يعيش، وهو لن يسبّب الضَرر لعمّه بهروبه؛ عندها تركَه يخرُجُ وحدَه.

خرجَ في الصَباح الباكر، واتّجه إلى موقف السيارات المتّجهة للأقاليم، واستقلّ السيّارة المتّجهة للمحافظة التي يسكنُها عمّه، وكان عليه أنْ يقطعَ نصفَ الطريق على الأقلّ ليطمئنّ أنْ لا أحد يتبعه، ثمّ غادر السّيارة، واستقلّ سيّارةً أخرى عائدة للقاهرة، ثمّ توجّه مباشرةً للمول الذي سيلتقي فيه عينَ القطّ، ثمّ اتّخذ مقعدًا في ركن جانبيّ يستطيع أنْ يراقب مِن موضعه مدخلَ الكافيه الذي اتّفقا أن يلتقيا فيه .

أخذ يهزّ ساقه بقلقٍ وتوتّر، وعندما رآها تدخلُ الكافيه تعرّق جسده، وتجمّد في مكانه، ولم يستطعْ أن ينهضَ من كرسيه.

كان متردّدًا خائفًا، يتحسّب آلاف المرّات لردّة فعلِها عندما تراه، لا يأمَن أنْ تصرخ أو تفضحه في المكان، أو تبلغ الشّرطة.

تشجّع، ونهض أخيرًا، وسار ببطء حتى دخل الكافيه، ووقف ينظر باتّجاهها متردّدًا مترقّبًا، ولكنْ عندما رفعتْ هاتفَها على أذنها لتستقبلَ منه مكالمة، اكتسبَ شجاعةً لا يدري مِن أين أتته، وكأنّ تذكّره للمهمّة التي قدِمَ لأجلها أنساه الخوف..

اقتربَ منها، وبمجرّد أنْ رأته عرفته على الفور، وارتسم الغضبُ على وجهها، فعاوده القلقُ من جديد، وتقدّم منها بسرعة قبلَ أن تنهارَ

شجاعتُه، وقال:

- قبلَ أن تتهوَري، عليك أن تسمَعيني، فالأمرُ في غاية الخطورة.

قالت بريبة:

- ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟! وما علاقتُك بصديقتي؟!

قال بقلقٍ وهو يزدردُ ريقَه:

- ليست لي بها أيّ علاقة، أنا لا أعرفها، ولكنْ أرجوكِ أن تسمَعيني، إنّ ما جعلني أسعى للقائك هو ذلك الهاتف الذي بين يديك.

نظرتْ لهاتفها بدهشةٍ، وقالت:

- ماذا تريدُ منه!؟

قال:

- كانت لديّ نسخةٌ منه، وأردت فقط أنْ أحذّرك، فهو ليس هاتفًا عاديًا؛ بل يترك أثرًا مدمّرًا على خلايا الجسم.

نظرتْ له هازئة، وتساءلت:

- هل تعملُ في أحد برامج التّوعية من أخطار الهواتف المحمولة!!

قال:

- أرجوكِ صدّقيني، لقد فقدتُ صديقي بسبب ذلك الهاتف، لقد بدّل خلايا جسمِه وجسمي، وأكسبنا قدراتٍ غيرَ عادية.

قالت:

- يبدو أنّك أسيرٌ لأفلام الخيال العلمي! لنْ أضيّع وقتي في هذا الهُراء، اذهبْ يا صغير لبيت أهلك، واشربْ كوبًا من الحليب وحبّةً مِن Day and night وأحكم الغطاءَ جيدًا، ونم.

قال بألمٍ وقد امتلأت عيناه بالدّموع:

- يا إلهي! ماذا أقول لتصدّقيني؟ لم يعد لي بيت، لقد احترق بيتي وقُتلَ أبي بسبب هذا الهاتف، أرجوكِ.. يجب أن تصدّقيني قبل أنْ يدمّر حياتك؛ كما فعلَ معي ومع صديقي.

كانت تنظرُ إليه بارتيابٍ وكأنّه مجنون، ولكنّ الدّموع التي ظهرت في عينيه جعلتها تصمتُ متعجّبة، وراودها الشكّ.

استغلّ رامي الفرصةَ علّها تقتنع، وقال:

- ألمْ يراوذك الشكّ لحظةً عن تلك الألعاب الغريبة والتّحديات العجيبة التي ندخلها! هل تصدّقين حقًّا أنّه يمكن لشركةٍ أن تهدي هواتفَ محمولة بلا ثمن، فقط كمكافأةٍ على لعبة تحدّي! ألم تنتبهي أنّ الجوّال نفسه غريبٌ عجيب، وليس كأيّ جوّال في السوق!؟

كانت تستمعُ له بتعجّب، تريد أن تفهمَ وتعرف إلى أين يريد أن يصل.. فقال:

- إنّ هذا الهاتف يحوي مخزنًا للطّاقة النّووية الضعيفة، ويطلق موجاتٍ كهرومغناطيسية.

إلى هنا وارتسمت على وجهها ابتسامةٌ ساخرة، وقالت:

- نعمْ بالفعل، وأنا أحملُ في حقيبتي قنبلةً ذريّة، أنصحُك أنْ تذهب إلى مستشفى العبّاسية للعلاج قبل أنْ تتفاقم حالتك.

تركتْه وغادرتِ المكان، وأسرعتْ بالخروج من المول، فتبعَها وهو يقول:

- أرجوكِ صدّقيني، يمكنني أنْ أعطيك اسمَ عالِمَين شهيرين في مصر، وأرقامَ هواتفهم لتتأكّدي منهما، ويقوما بفحص الجوّال بأجهزةِ الكشفِ عن الإشعاع.

التفتتْ إليه وهتفتْ غاضبة:

- إذا تبِعتني أو حاولت اعتراض طريقي ثانية، أو خداعي؛ فسأبلغ الشّرطة، أفهمت!

لم يسمعْها؛ فقد رأى ما أفزَعه بشدَة، فبمجرَد أنْ خرجا من المول، تحرّكت على الفور من الجانب المقابل من الرّصيف السّيارةُ السّوداء الكبيرةُ ذاتُ الزّجاج المعتم، والتي يعرفها رامي جيدًا.

***

لم يصدَق شريف نفسَه، فهو أمام يهوديّ بولندي، كان عقلُه مشتّتًا، يحمل ألفَ فكرةٍ وفكرة، وكلّ فكرةٍ ألعنُ مِن أختها.

استغرقَ فترةً طويلةً للغاية في التّفكير كي يستطيع - فقط- أن يقرّر، هل يخبرُه باسمه الحقيقيّ وجنسيّته، أمْ لا؟!

لم يكنْ لديه مشاكل مع شابٍ يهوديِ الدّيانة، ألمانيّ الجنسية، كما يشي اسمُه، ولكن..

ماذا لو كان صهيونيًا مؤمنًا بمبادئ الصّهيونية التي تمَ ترسيخها سنة 1897 في مؤتمر بازل بسويسرا!؟ كما قرأ كثيرًا في كتب التّاريخ..

إذًا، فهو يعتبر فلسطين موطنَه، ومقصدَه الديني، ووجهته وهدفه، والعربُ أعداء إنْ لم يكونوا على نفس ديانتِه!!

قال شريف ببطء:

- جرحُك سيتلوّث إنْ لم نجد ضمَادات.

قال الشّاب:

- خالي طبيب، علينا أن نذهبَ لبيته، ولكنّ الطريق طويلٌ للقرية التي يسكنُها.

لم يكنْ بإمكان شريف التّراجع، فهو على أرضٍ نازيّة، عليه أن يكملَ مع

هذا اليهودي للنهاية رغمَ شعورِه بأنه وقع في كارثة.

أكملا طريقهما بالدراجة النارية حتى فرغ منها الوقود، وتوقفت وهُما لم يصلا إلى منتصف المسافة لوِجهتِهما، كان مِن المستحيل طلبُ المساعدة في أرضٍ نازية، أو البحث عن محطة وقود..

أكملا طريقهما سيرًا على الأقدام، يقطعان القِفار، ويعبُران بين المَزارع متجنبين الأماكنَ التي بها بشر.

وكان عليهما أنْ يتوقفا بعد أنْ بلغ الإرهاقُ بإيزاك مبلغَه، وكاد يفقدُ الوعي، استلقى شريف أرضًا يستردّ عافيته، لكنّ رفيقه المستلقي إلى جواره لم يتركه وشأنه، بل سأله ببساطة:

- لمْ تخبرني مِن أين أنت؟

كان شريف يقضي طوالَ الطريق في التفكير في حبكةِ قصة متقنة عن حياته كيهودي، ولم يجدْ أمامه سوى المسلسلات المصرية لتمدّه بتلك القصة المختلقة، وأدرك أنّ الخدعة مازالت تعمل بكفاءة عندما صدّقها إيزاك.

لو كانَ ما يفعله الآن عرضًا أمامَه في أشدّ الأفلام تفاهةً وهزليّة، لأغلقَ التلفاز على الفور، وهو يتّهم مَن سمح بعرض تلك الأعمال الساذجة على الناس؛ بالسّفهِ والسّطحية؛ لكنّ ما يعيشه الآن حقيقةٌ وواقعٌ وجدَ نفسَه فيه رغمًا عنه!

ما كان يظنّ يومًا أنّ مسلسلًا مصريًا قد يكون حيلة خادعة ناجحة!! لكنْ يبدو أنّ تلك اللعبة لم تنجح حقًا، إلا أنه في عام **1944**، أي قبلَ إنتاج المسلسل بأربعين عامًا على الأقل.

فحكى للشابّ أنه يهودي من مصر غادرَ إلى أوروبا، لكنه قبض عليه في فرنسا، وعندما علمَ إيزاك بذلك ضحكَ هازئًا من غبائه، وقال:

- لا أصدّق أنّك بهذا الغباء حقًا، أتترك مصرَ هربًا من قوّات روميل التي

لم تدخلها بعد، وتأتي لأرض محتلّة بالنّازيين!!

قال شريف مبرّرًا:

- نحن في عصر الأرض كلّها محتلّة بالنّازيين.

صمت إيزاك وتغيّر وجهه، فجاء دورُ شريف ليسأله:

- إلى أين كانوا يأخذوننا؟ إلى معسكر أوشفيتز؟

قال إيزاك:

- لا أظنّ ذلك، ربّما كانوا يتوجّهون بنا إلى أحد المختبرات السريّة على هذه الأرض.

قال شريف بريبة:

- ومِن أين لك بمعرفة أنّ هنا مختبراتٍ سريّة؟!

قال:

- أنا أعمل باحثًا في أكاديمية العلوم البروسيّة في برلين. (شردَ لحظة، ولاحَ الحزنُ في عينيه، ثمّ استدرك قائلًا) أعني.. كنتُ..

هتف شريف بتعجّب:

- أتعملُ مع الألمان؟!

قال بغضبٍ:

- أنا ألمانيّ، وأعمل في مركز الأبحاث في بلادي.

كان شريف حَذرًا للغاية في الحديثِ معه، فما كان ليورّط نفسه بمشكلةٍ جديدة تُضاف للكوارث التي أحاطت به، فبالَغَ قدرَ ما يستطيعُ في ادّعاء السّذاجة؛ كي لا يثير حفيظةَ ذلك الشابّ، فقال:

- وأمسكوا بك لأنّك يهودي!؟

قال إيزاك:

- ما هذا الهُراء! أنا ألماني، ودرستُ في ألمانيا، وأعمل في برلين من سنوات.

قال:

- إذًا، لماذا اعتقلوك؟! ولماذا وضعونا معًا في عربة قطار وحدنا تحت حراسة مشدّدة؟!

نظرَ له إيزاك طويلًا بصمت، وتوجّس منه شريف، وحاول جاهدًا أن يخترق أفكارَه، ويترجمَها، لكنّه لم يستطع، كان عقلُه يثرثر كثيرًا، ويغلي بالأفكار، ولكنّه لم يفهمْ منها شيئًا، وأيقنَ شريف أنّها اللّغة البولندية، لغته الأمّ.

قال إيزاك:

- علينا أن نتحرّك بسرعة قبل أن تصادفنا دوريّة ألمانية، أو يدخل علينا الليل.

قال شريف:

- ولكن، كيف سنُكمل دونَ مواصلة، لا أظنّ أنّك ستتحمّل السير لمدّة طويلة.

قال إيزاك:

- ربّما نستطيع أنْ نحصل على درّاجةٍ أخرى عسكرية.

قال شريف: كيف!!؟

***

كانتْ دراجةً عسكريّة بمقعدٍ جانبي تهدرُ على الطريق، يركبها أحدُ جنودِ المراسلة المكلّف بنقْل الطرود والرّسائل من معسكر لآخر، لكنّه فجأة طارَ مِن على دراجته، وسقط سقطةً عنيفة، بعد أنِ اصطدمَ

جسدُه بسلكٍ نحاسيّ رفيع امتدّ بين شجرتين على جانبي الطّريق، واستمرّت الدّراجة بالاندفاع عدّة أمتار دونه حتّى انقلبت، وفي تلك اللّحظة خرج إيزاك وشريف ركضًا، كلّ مِن على جانبي الطّريق، بعد أن أدّى السّلك الرفيع الذي يصعب رؤيته، والذي ربطاه في الشّجرتين بعُرض الطّريق؛ مهمّته على أكمل وجهٍ وأسقطَ الجنديّ عن درّاجته، ثمّ هجمَا على الجندي، وضرباه حتى أفقداه الوعي، ثمّ استوليَا على الدّراجة، وأفرغا المقعدَ الجانبي من الرّسائل والطّرود، وركبَ إيزاك مكانَها، وتولّى شريف قيادة الدّراجة بمهارته.

كانَا يتجنّبان الطرقَ الرّئيسية والفرعيّة، ويسيران عبر الغابات والحقولِ حسب توجيهات إيزاك الذي يعرف الطريقَ لأنّها بلدتُه، حتّى وصلا إلى القرية التي ولدَ وتربّى فيها إيزاك، لكنّه بمجرّد أن اندفعَ داخل البيت، وجدَ البيت خاليًا، ولا أحد مِن أهله موجود هناك، فاشتعل بالغضب، وأخذ يضربُ المنضدة بقبضته، ويصرخ غيظًا:

- الوغدُ نفّذ تهديده.

قال شريف بحذر:

- مَن هو؟ ماذا تعني!

تجاهلَ ما قاله:

- علينا أنْ نذهب إلى الطّبيب في القرية المجاورة.

كانتْ قد تكوّنت في رأس شريف فكرةٌ ما، لكنّه كان يريد أن يتأكّد منها مِن لسان إيزاك، فسأله مباشرة:

- أين ذهبتْ عائلتك!؟

قال غاضبًا وهو يخرج مِن البيت:

- لقد تمّ تهجيرُهم.

تأكّد شريف تمامًا من صحّة فكرته، لكنْ تبقّى شيء واحد فقط، أنْ

يسمع الاسمَ بأذنيه، فقالَ وهو يهرول خلفَه نحو الدَراجة:

- إلى أورشليم!؟

هتفَ إيزاك ضائقًا:

- إلى أرضِ الجحيم.

***

صرخَ رامي بها:

- اهربي الآن.

لم تتحرّك من مكانها، بل نظرتْ له بخوف كما لو كان مجنونًا، فأمسكَ معصمَها ليجذبَها بعيدًا عن السَيارة التي تقترب بسرعة، فصرخت وهي تشدّ معصمها من كفّه:

- أجُنِنت!! دعني.

التفتَ لها، وقال برعب:

- لو أمسكوا بكِ؛ ستكون نهايتك.

ما كانتْ لتستمعَ لهذا المجنون، ولا تتبعه لولا أنْ رأتِ السيّارة الغريبة تتّجه إليها مباشرة، ويُفتَح بابُها بسرعة قبلَ حتّى أن تتوقّف تمامًا، فأدركتْ أنّهم يقصدونها، فانطلقتْ تجري هاربةً في الاتجاه الذي ركضَ نحوه رامي، والذي التفتَ خلفَه ليرى هل أمسكوا بها أمْ لا، فوجدَها تجري ناحيته، فأكملَ طريقَه عدوًا وهي خلفه، لم تكنْ تفهمُ لماذا تجري، ولا ممَ تهرب، ولكنّ فكرة أنّ رجُلين في سيّارة سوداء خلفَها أزعَبتها، فأكملتْ وهي لا تفهمُ لم تتبعُ رامي المجنون؟!!

لم يكنْ رامي يدري أينَ يذهب، ولا في أيّ مكان يختبئ، لكنّه كان يفرّ من شارعٍ لشارع هربًا من مطارديه، حتّى وجد نفسَه ينطلق مباشرةً نحو عمارةٍ مازالت تحتَ الإنشاء، كانت قدماه تقودانه إليها بلا وعيٍ

منه، وفي عقلِه تذكّر أوّل تحوّل له هو وشريف عندما قذف بهما رجالُ المنظّمة في بئر مصعدِ عمارة كانت أيضًا هي الأخرى تحت الإنشاء.

واستولت عليه الذّكرى، وهو يصعد سلّمَ العمارة الخرساني، وينظر نحو الأعلى وكأنّما يظنّ أنّه سيجد شريف هناك! وقد يلتقي به

وعيناه على رفيقتِه المطارَدة في الخلف، ينظر هل اقتربَ مطاردوه منها!

أخذَ يصعدُ السّلالم التي لم ينتهِ تشطيبُها بعد، طابقًا بعد طابقٍ حتّى وصلَ إلى الدّور العاشر، وخلفه إيمان التي تتبعه، وقد شلّ الرعبُ تفكيرَها، فلم تعد تسأل إلى أين يتّجهان، فكلّ ما سيطرَ على عقلِها في تلكَ اللّحظة هو غريزةُ النّجاة من رجالٍ مجهولين يطاردونها، ويبدو أنّ نظريةَ المؤامرة التي شرحَها رامي لها منذ دقائق قد تركتْ أثرَها الفعّال في مراكز الخوف في عقلها توقّفًا لالتقاط الأنفاس، وبعد لحظاتٍ قالت إيمان وهي تتذكّر هاتفها: - علينا إبلاغُ الشّرطة.

أخرجتْ هاتفها من الحقيبة، فصرخَ بها:

- لا تبلغي الشرطة. (ثمّ أكمل بيأس): لن يتمكّنوا من الوصول إلينا في الوقت المناسبِ أبدًا.

هتفتْ صارخةً في وجهه:

- ماذا تعني! هل تحاول اختطافي!؟

قال بأسف:

- لن يختطفوننا، بل سيقتلوننا على الفور.

هتفتْ بذعر:

- هل أنتَ معهم؟! هل دللّتهم عليّ!؟

هتف:

- كيف أدلّهم عليكِ وأنا نفسي مخطوف!؟

هزّت رأسَها بخوف:

- لا أفهمُ أيّ شيء! أنتَ بالفعل مجنون، هل أنتَ مدمنٌ لعب الألعاب القتاليّة يا ولد!.

سمعا أصواتٍ بالأسفل، فنظر رامي إلى بئر المصعد علّه يرى ما يحدث، لكنّه شعر بالدّوار يهاجم رأسه؛ فتراجع وهو يقول بإعياء: - لقد حاصرونا.

هتفت الفتاةُ بخوف:

- مَن هؤلاء؟! أخبرني، وكيف سنهربُ الآن؟ أنتَ مجنون، أتيتَ بنا لعمارةٍ تحت الإنشاء، مِن السّهل أن يجعلوها مصيدةً لنا، وأنا من غبائي تبعتُك دون تفكير.

نظر إليها طويلًا، وشردَ عقلُه بعيدًا، الآن فقط أدركَ لمَ قادته غريزتُه إلى هنا، ولمَ اختار بنايةً شاهقة تحت الإنشاء ليختبأ بها، ربّما كانت بالفعل الحلّ الوحيدَ للنجاة!!

استفزّها عدمُ قيامه بأيّ ردّ فعل، فأخذت تصرخُ في وجهه:

- تكلّم، كيف سنتصرّف الآن!؟ إنْ لم تساعدني سأتّصل بالشرطة وأخبرُهم أنّك اختطفتني.

كان يبدو وكأنّه لا يسمعُها، وقد ذهبَ عقلُه في مكان آخر، بالفعل كان عقلُه في مكانٍ آخر، كان يفكّر في شريف وأوّل مرّةٍ ألقيا فيها في بئر المصعد، ثمّ انتبه لصراخِ الفتاة، وقال بصوتٍ مُرتجف:

- فقط، أرجو أنْ تسامحيني، لا أقصدُ إيذاءك أبدًا، لكنّه الحلّ الوحيد لنجاتنا.

نظرتْ له بدهشة، ولم تفهمْ شيئًا من كلماته، فقالت بخوف:

- ماذا تقصد!؟

كانت إجابته لها صادمةً بشكلٍ لم تكنْ لتتوقّعه في أسوأ كوابيسها، لم تكنْ إجابته كلامًا، بل كانت دفعةً قويّة في كتفها ليختلّ توازنها، وتسقط في بئر المصعد.

نظرَ لها برعبٍ وهي تسقط، وصراخُها يصمّ الآذان، ويلقي بالفزع في قلبه، همّ أنْ يقفز خلفها، لكنّ نظرةَ الفزع التي كانت آخرَ ما رآه في عينيها جمّدت كلّ شيء فيه، حتّى عقله وتفكيره، ممّا جعله يتجمّد تمامًا في مكانه، ويسيطرُ على عقله سؤالٌ واحد فقط، هل ستنجو حقًّا؟! هل ستمرّ من الفجوة! أم سترتطمُ بالأرض وتموتُ كما مات شريف ضحيّة لغبائه؟!

نظرَ نحو الأسفل، فرأى جسدَها يواصل السقوط،وأصواتُ رجال المنظّمة تقترب، أرادَ أن يلقي بنفسه خلفَها، لكنّه شعر بالشّلل يسري في بدنه، والدّوار يلفّ رأسَه، وأصابَه الرّعب الشديد، وعجزَ عن تحريك قدميه.

كمْ تمنّى- لحظتَها- أنْ يكون شريف هنا، فهو الوحيدُ القادر على أن يمنحَه بعضَ الشّجاعة، كم تمنّى أن يكون صديقُه حيًّا ويمسك بيده وهو يقفزُ، ويمرّا معًا من الفجوة، كم تمنّى أن يخبره هل ما فعله بالفتاةِ لمصلحتها أم أنّه قضى عليها!؟ هل نجث بالفعل أم صار قاتلًا!

أسند ظهرَه للجدار من الإعياء، وانْهار جسدُه أرضًا، وأخذ يبكي وينتحبُ، وجسدُه يرتجف بعنف، لم يجذ إجابةً لأسئلته إلّا عندما سمعَ صوتَ الفرقعة التي اعتادها، ورأى نورًا قادمًا من الأسفل يتلوّن بعدّة ألوان متتابعة، فأدرك أنّ الفتاة قد فتحتِ الفجوة، ولم ترتطمْ بالأرض، وإنّما انتقلتْ إلى مكان آخر.

لم يشغلْ باله أين ذهبت، ولا كيف ستعود، لكنّه أدرك أنّ تلك الفتاة من بعدِ هذا الموقف..

حياتُها تغيّرت للأبَد.

***

قادَ شريف الدّراجةَ بصمت، وهو لا يدري كيف يتصرّف!

لقد سقط بين شقي الرّحى، نازيّة أو صهيونيّة، وعليه أن يستمرّ رغمًا عنه حتّى يخرج حيًّا من ذلك المستنقع.

بالنسبة له، لا فرقَ بينهما، فالاثنان وجهان لعملةٍ واحدة، صورة واحدةٌ للعنصريّة البغيضة، والوحشية بلا حدود.

هو لا يثقُ- إطلاقًا- بذلك الجالسِ في المقعد المجاور له، لكنه سبيلُه الوحيد للخروج من تلك الأرض، وعدم الوقوع مجدّدًا بين يدي النّازيين.

لم يتبادلا أيّة كلمةٍ، فإيزاك يغلي من الغضب، ويفكّر في عائلته التي هاجرت للمجهول.

وصلَا إلى القرية المجاورة، واتّجه شريف مباشرة إلى بيت طبيب القرية، كما أرشدَه إيزاك، وبمجرّد أنْ فتح لهما الباب حتى هاجمه إيزاك، وأخذ يصرخُ في وجهه بعنف، والطبيبُ يحاول تهدئة ثورتِه بلا جدوى، لم يفهمْ شريف ولا كلمةً من حديثهما، لكنْ وصلتْه صورةً واضحة عمّا حدث، لكنّه لم يتدخّل، واتّخذ دورَ المتفرّج حتى انْتهى الشّجار بانْهيار إيزاك الذي ارتمى على مقعدٍ، وانخرط في البُكاء اليائس، وأخذَ الطّبيب يربّت على كتفه مشفقًا، فدفع إيزاك يدَه بعيدًا بغضب، ولم يجدِ الطّبيبُ حلًا إلّا أنْ ينسحب من المكان ليدعَ إيزاك يستردّ هدوءه، ويحضّر هو غرفةَ الجراحة ليستخرج الرّصاصةَ التي في كتفه، ويضمّد جراحَه.

اقتربَ شريف من إيزاك، وسألَه بحذرٍ وهو يحاول- قدرَ ما يستطيع- أنْ يتقمّص دورَ يهوديّ مصري لا يعلم شيئًا عن القارة التي انتقلَ إليها حديثًا:

- لماذا أنت غاضبٌ من هجرة عائلتك إلى أرض الميعاد!؟

نظرَ له باحتقار، وقال بمرارة:

- إمَا أنْ تكون أبلهًا، أو أنك منهم؟! كذب.. كلّ هذا كذب وخداع، يوهِمونَنا بأنّنا سنذهب إلى أرض الميعاد، ونعيش في رغد، وسنحصلُ على الأراضي الشاسعة الخصبة لنزرعها، سيكون لنا دولة وبيوت ومصانع وقصور؛ إنّما الحقيقة.. أنّهم يستغلّون جهلَ الفقراء والعامّةِ من اليهود، ويؤجّجون مشاعرَهم الدينية، ويلقون بهِم بين أنياب العرب المتوحّشين ليسحقونَهم، ألستَ مِن هناك وتعرف ما يجري!؟

إنّه الجحيمُ على الأرض.

قال شريف بحذر:

- بريطانيا هناك.

قال:

- بريطانيا عاجزةٌ عن السّيطرة على أيّ شيء هناك، ألم تسمع بالثّورة التي قامت هناك منذُ ما يقرب من ثمان سنوات!؟ إنّه فخ.. بريطانيا أنهكتْها الحربُ ضدّ ألمانيا، ولا يمكنها البقاءُ في أرض العربِ لوقتٍ أطول، والآن تريد جنودًا متطوّعين يقاتلون العرب، ويخمدونَ الثّورات نيابةً عنها دون أن تتحمّل كلّ تلك التكلفة الباهظة لبقاء جنودها في أرض العرب.

قال شريف بدهشةٍ حقيقيّة:

- إذًا، أنت لا تريد العودة!

هتفَ باستهزاء:

- عنْ أيّة عودةٍ تتكلّم يا غبي! أنا لم أذهب أبدًا إلى هناك لأعود، لقد ولدتُ هنا، ودرستُ في أوروبا، وأعملُ في ألمانيا، وعندما تنتهي الحربُ بانتصار ألمانيا يُمكنني أن أعودَ لعملي عندما يتبيّن لهم أنّ الأمرَ كان

وشايةٌ حقيرة من الوكالة اليهودية لإجباري على الهجرة، كما أنهم بحاجةٍ لي، وسواء كنت مجرمًا من وجهة نظرهم أو بريئًا؛ سيتغاضون عن أيّ شيء في سبيل مصلحتهم.

قال شريف:

- ولكنّ الألمان يضطهدون اليهود!!

قال:

- الألمان يضطهدون أيّ شيء ليس ألمانيا فقط، أيّ شيء، وأيّ شخص ضدّ مصلحتهم ولن يستفيدوا منه؛ فهو عدوٌّ لهم.. أولاد الأفاعي وشوا بي، فمنذ وقتٍ طويل وهُم يحاولون إقناعي بالهجرة، لكنّني رفضت.. كيف أترك عملي وبيتي ومنصبي في مركز الأبحاث، وحياتي المستقرّة في ألمانيا؛ وأذهب إلى المجهول!! إلى دولةٍ محتلّة، بها ثورةٌ شعبيّة عاتية، تعجز إنجلترا بجلالتِها عن السّيطرة عليها، يُريدونَني أنْ أترك مجالي ومهنتي في العلم والأبحاث لأمسك السّلاح، وأقاتل بشرًا لا أعرفهم مِن أجل خرافات دينيّة عفا عليها الزمن!! وفي النّهاية أقتَل على يدِ عربي!

قال شريف بذهولٍ، وكأنّما لا يصدّق ما يسمعه:

- العرب!!

قال:

- وكأنّك لستَ مِن هناك!! العرب يقتلون البريطانيّين واليهود معًا، وبريطانيا تريد محاربةَ العرب بتجييش اليهود من خلال دوافع دينيّة للإقامة في فلسطين بالاتّفاق مع الوكالة اليهودية في أوروبا.

ما كان شريف يظنّ أنّه سيرى التاريخ يومًا بعينيه، لا أن يقرأه في الكتب.. كانَ العرب يومًا أبطالًا، يُخيفون بريطانيا العظمى، ويُرعبون اليهود!!!

قال شريف وكأنّه يريد أنْ يستخرج منه كلّ ما في عقله:

- ولكنّ اليهود يُحرَقون في المعتقلات النّازية هنا في بولندا!

قال بدهشة:

- هل أنتَ مخبول! قلتُ لك إنّ النّازيين يعدمون كلّ مَن هُم ضدّ النّازية؛ يهود، عرب، غجر، بولنديين، سوفييت،..

سأله:

- أليست هناك مَحرقة في معسكر أوشفيتز!

قال:

- المحرقةُ للجُثث التي مات أصحابُها بالتيفويد والأوبئة، حتى لا ينتشرَ المرض، ويتحوّل إلى طاعون لا يمكن السيطرةُ عليه.

قال:

- وماذا عن الأحياء؟!

قال:

- إنْ أحرقوهم فمَن سيقوم بالعمل في معسكرات العمل إذا!!؟ لقد جنّد الألمان شبابَهم للحرب، وعليهم أن يجدوا مَن يقوم بالأعمال الشّاقة، ومَن يحلّ محلّ العمّال في المصانع.

قال:

- وماذا عن غاز زيليكون B؟

قال:

- غاز زيليكون B لا يُستخدم إلّا في المعامل، وتحت رقابة شديدةٍ وبكمّيات قليلة، وبعد احتياطاتٍ شديدة جدًّا؛ لأنّه في غاية الخطورة، حتّى على مَن يعملون عليه.

قال شريف بشرود:

- إذاً، لماذا اعتقلوك!؟

قال:

- قلتُ لك مِن قبل؛ لأنَ أعضاء الوكالة وشوا بي، وأبلغوا عني بأنني سرَبت أسرارَ عملي في المختبر.

سمع الاثنان صوتَ سيّارات في الخارج، فنظر إيزاك بسرعة من خلفِ ستائر النافذة، وهتفَ بغضب:

- الخائن!! وشى بنا وأبلغ الألمانَ عن مكاننا.

هتفَ شريف بدهشة:

- الطبيب! خالك! لماذا؟

قال:

- لأنَني صمَمت على الرَفض لأنَ أخضع له، ولم أقبل بالهجرة، ولن أتبعَ باقي عائلتي.

هتفَ لشريف:

- تعالَ.

تحرّك شريف خلفَه بسرعة، واندفعَ إيزاك إلى غرفة الجراحة، وفاجأ الطبيب بلكمةٍ قويّة، وساعده شريف على تكبيل حركتِه، وعندما حاول أنَ يقاوم ضربَه إيزاك على رأسِه بعنفٍ حتّى أفقده الوعي.

هتفَ إيزاك لشريف، وهو يخلع ملابسَ الطبيب ويبدلَها بملابسه:

- بسرعة بدّل ملابسَك بملابس مساعدِ طبيب، هناك في هذه الخِزانة، سنحاول أن نخدعَهم.

فتح شريف الخزانةَ بسرعة، وأخرج منها قميصًا أبيضَ طبيًا طويلًا،

ارتداه على عجلٍ ليقوم بدور مساعدِ الطبيب، ثمَ التفت إلى إيزاك الذي ارتدى ملابسَ الطبيب، لكنه تجمّد في مكانه، وظهرت على وجهِه أماراتُ الرّعب، وعجز لسانه عن النطق.

كان وجهُ إيزاك يتبدّل بطريقةٍ غريبة ومُخيفةٍ ألقتِ الرّعب في قلب شريف، كانت عضلاتُ وجهِه تتحرّك، ولونُ جلده يتبدّل، وعظام وجنتيه تبرُزان، حتّى صار وجهُه نسخةً طبق الأصل من وجه الطّبيب الفاقد الوعي أمامَه.

نظر إيزاك لشريف قائلًا:

- ماذا هناك!؟

لم يستطِع شريف أن ينطقَ بعد أنْ رأى أمامَه ذلك التحوّل المُرعب، لكنّ إيزاك التفتَ إلى المرآة عندما وجد شريف يحملق في وجْهِه وهو مرتعب.

ارتدّ إيزاك للخلف، واستولى عليه الذّهول، وأخذ يتحسّس وجهَه بكفّيه، ويحملق في المرآة وهو يلهث، كما لو كان فوجئ بما يحدث لوجْهِه دون إرادةٍ منه.

أخيرًا، أدرك شريف الإجابةَ عن السؤال الذي حيّره طويلًا، لماذا تمّ الجمع بينه وبين إيزاك، ووضعًا معًا في عربة خاصّة في القطار خالية من أيّ أحد غيرهما، وتحت حراسةٍ مشدّدة؛ لقد أدرك- أخيرًا- أنّ إيزاك تعرّض لمثل ما تعرّض له هو ورامي سابقًا، أو بمعنى أدقّ، لاحقًا، في زمنه الذي سيأتي بعد.

كان على شريف أنْ يتجاوزَ كلّ تلك المشاعر والمفاجآت، ويلقي بها خلفَ ظهره دفعةً واحدة، بعد أنْ وصل الجنود الألمان لباب البيت، ومعهم مرشدٌ من جيران الطبيب يدلّهم على البيت.

كان شريف يجاهدُ محاولا إتقان الدّور الذي وضع فيه قسرًا، فهو الآنَ مساعدُ الطّبيب، وهما في غرفة الجراحة يستعدّان لعمل عملية جراحيّة

لأحد المرضى، ودعا الله كثيرًا ألّا يوجّه له أحد أيّة أسئلة وإلّا لانفضح أمرُه على الفور بسبب اختلافِ اللّكنة.

كان هذا هو ما قاله إيزاك للضّابط الألماني الذي يبحث هو وجنودُه عن الهاربين، وهو يحاول قدرَ جهده أن يقلّد صوتَ خاله الطّبيب، وأسلوبَ كلامه حتّى أمام ذلك الجار الذي اصطحبه الضّابط معهم، وساعدَه كثيرًا ذلك الوجه الجديد الذي تشكّل بأسلوب ملحميّ مُزعب متّخذًا هيئة وشكل وجهِ الطّبيب الذي يعرفه الجار جيدًا، ولم يشكّ لحظةً أنّه هو، وهو يرتدي ملابسَ الجراحة، ويغطّي رأسه بطاقية بيضاء طبية.

وكان شريف يقفُ عند رأس المريض الممدّد على طاولة الجراحة، ويضعُ على وجهه كمامةَ الأكسجين السّوداء الضّخمة التي لم يرَ لها مثيلًا إلّا في الأفلام المصرية القديمة في حِقبة الأربعينيّات، والتي أخفتْ أغلبَ وجهه تحتَها، فلم ينتبه له الجنودُ الذين فتشوا المكانَ جيدًا، وبعدها رحلوا..

تنفّس شريف الصّعداء، وأخذ يراقبُ الطريق من النافذة حتى اطمئنّ لرحيل الجنود، ثمّ التفتَ لإيزاك الواقف عند رأس الطبيب الممدّد فاقدًا للوعي على مائدةِ الجراحة، وأخذ يراقبه بصمت مرتعبٍ وهو يبتلع ريقَه، ويرى عضلاتِ وأنسجةَ وجهِه، وهي تتحوّل لتعود لحالتها الطبيعيّة، ولونُ جلده يتبدّل ليعود إلى طبيعته، ويتّخذ شكلَه الأوّل كإيزاك الذي عرفه من ساعات.

لم يستطعْ شريف أن يكتمَ دهشته وفضولَه، فسأله بدهشة:

- منذُ متى تأتيك تلكَ الحالة!؟

أدركَ إيزاك أنه لم يعدْ هناك مجالٌ للإنكار، فقال:

- منذُ أن خضتُ تلك التجربة المرعِبة في المختبر، وتغيّر كلّ شيء في جسدي، لكنّها المرّة الأولى التي أرى فيها وجهي يتبدّل بهذه الطّريقة الغريبة.

سأله وفي عقلِه تدور كلماتُ دكتور إسماعيل:

- منذ متى والألمان يجرون تجاربَ على نظرية الحقل الموحَد!!

لم يكنْ لسؤاله معنى مع دولةٍ كبيرة متقدّمة مثل ألمانيا دخلت سباق العلم والتّكنولوجيا وتنافس فيه بقوّة أمام الدّول الأخرى، وبالتأكيد لهم علماؤهم ومختبراتُهم التي تعمل على تلك النظرية وتسابق الزّمن لتتفوّق على أعدائها.

قال إيزاك متعجّبًا:

- أنتَ أيضًا تعلمُ عن هذا الأمر!!؟

قال شريف:

- كلماتُك تؤكّد لي بأنّني لست الوحيد الذي يعلمُ بأمر تلك التجارب السّريّة.. ربّما الوكالة اليهودية أيضًا تعلم! لهذا يسعون خلفَك.

لم يكنْ بحاجةٍ لتأكيد كلماته، فصمتُ إيزاك جعلَه يدركُ صحّةَ ما فهمَه، فقال وهو يلهثُ بانفعال:

- يبدو أنّك شخصيّة في غاية الأهميّة بالنسب للوكالة اليهودية ليرسلوا رجالَهم في عمليةٍ انتحارية لإنقاذك من القطار، بعد أن أوقعوا بينك وبين الألمان، وهجروا عائلتك للضّغط عليك للسفر إلى إسرائيل.

عقدَ إيزاك حاجبيه، وقال متسائلًا:

- إسرائيل!!

استدرك شريف بعد أن تذكّر أنّها لم تصبح بعدُ دولةً على الأرض: - أعني، أرض الميعاد.

أغلقَ شريف فمَه، وأخذ عقلُه يطحن الأفكار ويلوكُها..

الوكالةُ اليهودية تنتقي بالفعل، باحثٌ شابّ وعبقري ومشروع عالم في مراكز ومختبرات أبحاث الرايخ الثالث، لا بدّ أنّه سينقل الخبراتِ

والتكنولوجيا الألمانية المتقدّمة إلى دولةٍ ينتوون إنشاءها على أرض العرب.

لا تبنى الدّولَ إلا هكذا.

انتابته حسرةٌ ومرارةٌ على واقع بلادِه المؤلم..

قال بعد أنْ صار كلّ منهما مكشوفًا للآخر:

- كنتُ متأكّدًا أنّ جمعَنا في عربة قطارٍ واحدة لوجهةٍ واحدة لم يكن مصادفةً أبدًا، لقد كنت تخضعُ للفحوصات والاختبارات نفسها لأنّ جسمَك تعرّض للإشعاع والموجات الكهرومغناطيسية بشكلٍ مكثّف.

قال:

- إذًا، فنحنُ الاثنان تعرّضنا لنفس الشيء! أنا عن طريق الألمان وأنت!! عنْ طريق ماذا؟!!

قطعَ حديثهما قبلَ أن يجيب صوتُ سيّارة نقل كبيرة تقترب من البيت؛ فهبّ إيزاك وشريف للنّافذة، فقال إيزاك عندما عرفهم:

- رجال الوكالة.

فقال شريف:

- علينا أن نهرب.

التفتَ إيزاك إلى ذلك الملقى على طاولة الجِراحة، فوجدَه بدأ يفيق وأخذَ يتأوّه، فقال:

- عليّ أولًا استردادُ دين قديم.

أمسك بمبضَعِ الجراحة، وبروح تمتلئ غلًا ونقمة، وبحركةٍ سريعة لم يتوقّعها شريف أبدًا؛ قام بذبح الطّبيب على طاولة الجراحة، فصرخَ شريف فزعًا من المفاجأة:

- ماذا فعلتَ أيّها المجنون!!؟

قال:

- ذلك الخنزيرُ هو مَن استدعى رجالَ الوكالة لنا، وأقنع عائلتي بالهجْرة، وهو سببُ كلّ المصائب التي حلّت على رأسي.. (أكملَ وهو يرى الرّعبَ مرتَسمًا على وجه شريف): لا تشغل بالك، إنها خلافاتٌ عائليّة.

تركَا المعمل، وغادرا البيتَ بسرعةٍ متّجهين إلى الدراجة النارية، ولكن..

قبلَ أنْ يصل شريف للدّراجة، تلقّى ضربةً عنيفة على رأسه أسقطته أرضًا، ولم يحتجْ شريف لكثيرٍ من التفكير ليعرف أنّهم أتوا ليأخذوا إيزاك، فرفعَ رأسَه بصعوبة، ورأى إيزاك يحاولُ الهرب منهم، لكنّهم لحقوا به، نظرَ إيزاك نحوه نظرةً أخيرة قبل أن يسحبوه نحو السّيارة، لكنّ ضربةً عنيفة أخرى أصابتْ رأس شريف، فأظلمتِ الدّنيا في عينيه، وفقد الوعي.

تذكر أنك حملت رواية الهروب الى الموت حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

***

استيقظَ شريف على آلامٍ رهيبة في كلّ جسده، وبرودةٍ تكاد تجمّد أطرافَه، ليجدَ نفسَه عاريًا تمامًا، ويجلس في كرسي معدني، معصماه مقيّدان بحزامٍ جلدي في يدي الكرسي، وهوَ في غرفة زجاجيّة أسطوانيّة، حاولَ أن يتخلّص من قيوده فلم يستطِعْ، ثمّ نظر حولَه مِن خلال الزّجاج ليجدَ مجموعةً من الرجال يقفون خارج الأسطوانة الزجاجيّة الحبيس بداخلها ينظرون نحوه باهتمام، وأمامَهم أجهزةٌ ضخمة معقّدة، لا يستطيع أن يفهمَ ما وظيفتها، لكنه أدركَ أنّه عاد كفأرٍ

تجاربٍ للعلماء النّازيين يفعلون بجسده ما يريدون، وأدركَ أنّ رجال الوكالة اليهوديّة أخذوا ما يريدون وتركوه هو للنّازيين.

كانتِ الغرفةُ الزّجاجية الأسطوانيّة تحجبُ عنه أيّ أصوات بالخارج، فلم يستطعْ أن يسمع ما يقولون.

مرّت الدقائقُ وهو يشعرُ بالرّعب، وفي عقله سؤال، ماذا سيفعلون؟ بدأتِ الغرفةُ الزجاجيّة تتلوّن بلونٍ بنفسجيٍ، ثمّ بدأت الصواعق الصّغيرة تحيط بجسدِه من كلّ اتّجاه، ورأى أمامَه الفجوة التي يعرفُها جيدًا، وشعر بجسدِه يكادُ يتفتّت، ثمّ فقدَ الوعي من شدّة الألم.

***

كان دكتور إسماعيل يعملُ في المركز، وعلى أجهزته الجديدة بهمّةٍ ونشاط، ويواصلُ الليل لينتهي من إعداد تلك الغرفةِ الأسطوانية الزّجاجية، وتجهيزها لتكتمل تجربتُه في أسرع وقت، يغمره أملٌ وإصرارٌ كبيران؛ أنّه من المُمكن استعادة شريف عبْرَ هذه التجربة، وبرغمِ عدم تأكّده من النتيجة، لكنّه يحاول..

فقط يحاول، ويبذل جهده.

وعندما انتهت كلّ التّجهيزات، قام بتشغيل الأجهزة، المتحكّمة في الغرفة الزجاجيّة، واطمأنّ أنّ كلّ شيء يسير بدقّة بالغة، وكلّ القراءاتِ في الأجهزة والمؤشرات مبشّرة.

جلسَ على كرسيّه ينظر إليها، ويراقب مؤشّرات الأجهزة لساعات،

حتّى سأله دكتور غازي:

- حتّى الآن لا شيء!! أكثرُ من ستّ ساعات مرّت ولا شيء، أتظنّ أنّ الأمر سينجح!؟

نظرَ للسّماء، وقال بوجل:

- منّا الجهد، وعليه التّكلان.. لا استنتاجات ولا نتائج، إنْ هي إلا

محاولات لرصّ اللبنات في الظّلام، أدعو الله أنْ يحالفنا النّجاح، وأستطيعُ استعادتَه.

وقفَ دكتور غازي أمامَ الأجهزة يراقبُ القراءات والشاشات الإلكترونية، وزفرَ عندما رأى كلّ شيء طبيعيًا، لكنّه انتبه فجأة؛ فقد بدأتْ إضاءةٌ بنفسجيّة باهتة تغمرُ الغرفة، ثمّ ظهرت الصواعق الصّغيرة لتملأ فراغها، وتغيّرت قراءات الشاشات في الأجهزة، فهتفَ دكتور غازي وهُما يراقبان بوجلٍ ما يحدث:

- هناك شيء ما يحدث.

فجأة..

حدثتْ فرقعةٌ رهيبة هزّت المكان، وفتحت الفجوةُ الغريبة، وشمّ الاثنان رائحةَ الاحتراق التي شمّها دكتور إسماعيل من قبل في بئر المصعد الذي سقط فيه رامي وشريف أوّل مرّة، وظهر ضوءٌ أبيضُ رهيبٌ، أعمى عيونَهما للحظات، فلم يتبيّنا ما يحدث، وعندما هدأ كلّ شيء، وانطفأ الضّوء وخبتِ الفجوةُ بألوانها الغريبة وصواعقها الصّغيرة؛ ظهرَ جسدٌ بشريّ مكوّم داخل الغرفة الزّجاجية.

هتف دكتور إسماعيل وهو يُمسك بذراع رفيقه:

- لقد نجحتِ التّجربة.

كان قلبُه يدقّ بعنف شديد، وهو يصرخ عدّة مرّات:

- لقد عاد، شريف عاد..

طفرَ الدّمع من عينيه، وصمتَ دكتور غازي غير مصدّق، حتّى هتفَ الدكتور إسماعيل مجدّدًا بانفعالٍ شديد:

- لقد استعدتُه، شريف حيّ...

اقتربَ الاثنان من الغرفة بعد أنْ أغلقا الأجهزة، وفتح بابها الدكتور غازي، وتقدّما من الجسد المكوّم، وخلفه دكتور إسماعيل، لكنّهما تجمّدا

في مكانهما تمامًا، ولم يستطيعًا التقدّم خطوة، حتى هتف الدّكتور غازي بصوتٍ متحشرجٍ من الانفعال:

- ما هذا!! أين شريف!؟

قال دكتور إسماعيل بذهولٍ وقد انهار بداخله كلّ شيء:

- إنّها فتاة.

***

فتحَ شريف عينيه ببطء، وأدرك مِن الآلام المبرحةِ في جسده أنّه مرّ مجدّدًا بنفس التّجربة، لم يعد يعدّ كم مرّة خاضها..

أزعجَه- للغاية- أنّه لا يزال عاريًا كالوليد.

نهضَ من الأرض ببطء، وهو يتحسّس جسدَه، ويتحسّس خطواته ويتبيّن ما حوله، فلم يعرف أين هو، ولا في أيّ مكان ألقت به الفجوةُ هذه المرّة!!

ولكنّ السّؤال الجديد الذي سأله لنفسه بعدَ تجربته الأخيرة هو، في أيّ عصر هو الآن!؟

نظرَ إلى ما حوله، لم تكنِ الغرفةُ زجاجيّةً كالتي تركها في ألمانيا النّازية؛ بل كانت جدرانُها مرايا، وفهمَ أنّها من الجهة الأخرى شفافةٌ؛ كي يراه الواقفون بالخارج وهو لا يستطيع رؤيتهم، استقامَ بجسده، واعتدل بجذعه، وهو يسمع صوتَ خطواتِ حذاء تقرعُ الأرض ببطء.

فُتِح بابُ الغرفة العاكسة الواقف فيها، فالتفَ ينظر خلفه، وتجمّد لحظاتٍ يحاول أن يستوعبَ عقلُه إنْ كانت الصّورة التي أمامه انعكاسُ المرايا لوجهه، أم أنّ ما أمامه شخصٌ حقيقي هو نسخة طبق الأصل منه!!

حسمَ الأمرَ في عقلِه أنّ مَن أمامه يرتدي ملابسَ أنيقة، وهو لا..

تراجعَ مذعورًا وقذ أصابه الفزع حتّى كاد ينزلقُ على الأرض المَلْساء، ويسقط على ظهره..

فمَن يقف أمامَه كان نسخةً حقيقيّة منه بالفعل، باختلافِ الشّعر الطّويل البنيّ النّاعم الذي يصلُ إلى رقبته، والسّوالف التي تصلُ لأسفلِ أذنيه، والملابس الأنيقة الفاخرة التي يرتديها....

وبدأتْ تراوده أفكارٌ عجيبة مزعجة، هل سقطَ في بعدٍ آخر، والتقى نسخةً أخرى منه!

ابتسمَ شبيهُه له، ثمّ تحوّلت الابتسامةُ إلى ضحكةٍ عالية، وهو يقول:

- منذُ أنِ التقينا في أوّل مرّة، ولمْ أرَ على وجهك سوى تعبير الدّهشة والذّهول، يا. ياكوف

استعادَ شريف ذاكرته في ثوانٍ، وعرف الشّخص الذي أمامه على الفوْر، وبدون أنْ يضيف كلمةً أخرى، بدأت عضلاتُه وأنسجة وجهِه تتحرّك وتتبدّل، ويتبدّل لونُ جلده ليعود إلى الوجه الذي يعرفُه شريف جيدًا... وجه إيزاك هيرليتز ، فقالَ شريف بخوفٍ وهو يتلفتُ حوله:

- أين أنا!!؟

قال إيزاك باسمًا:

- مرحبًا بك في أرض الميعادِ يا ياكوف.. أو.. لنقل إسرائيل.

ففَرَ شريف فاه، وتجمّد لحظاتٍ لا يستطيع عقلُه أن يستوعبَ الكارثةَ الجديدة التي سقط فيها، ثمّ أطلقَ صرخةَ فزعٍ وغضب هائلة ازتجّ لها المكان.

تمت بحمد الله